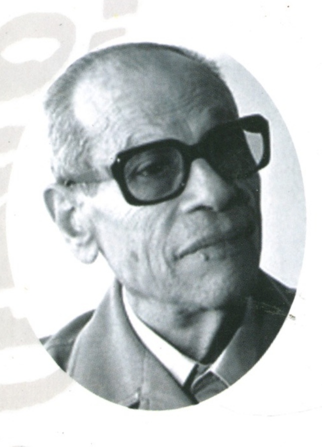
وصف مصر فى أدب نجيب محفوظ

القرآن الكريم



مصطفى بيومى



القرآن الكريم

مصطفى بيومى

رقم الإيداع ٢٠٩٣٨ / ٢٠١٠
ISBN 978 - 977 - 320 - 162 - 7

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

الناشر: مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة

تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ - ٢٥٧٨١١٠٣

البريد الالكترونى: actp@ahram.org.eg

تصميم الغلاف: د. وحيد القلش

هبة عادل

المحتويات

الصفحة

تقديم

أعمال نجيب محفوظ ليست كغيرها فى الأدب العربى الحديث. فإلى جانب القيمة الأدبية، التى لم ينفرد هو بها فى عصر ازدهار روائى مازال مستمرا، تبقى لأعماله أهميتها الخاصة التى لا يرقى غيرها إلى مثلها بسبب نفاذها إلى عمق المجتمع المصرى.

رسم نجيب محفوظ لهذا المجتمع صورا قلمية مدهشة عبرت عنه بعمق لم يتوفر مثله لعلماء الاجتماع. وطرق محطات فى تاريخه على مدى معظم عقود القرن العشرين بحساسية أكثر من المؤرخين. ونقد الواقع السياسى فى فترة كان النقد فيها مُكلفا، ولكنه اعتمد فى ذلك على قدرة فذة على الجمع بين الترميز والتصريح مكَّنته من تقديم أدب نقدى دون أن يعرِّض مشروعه الروائى للخطر.

بدت شخصياته الروائية أكثر حيوية، بل أوفر حياة، مما يعج به الواقع. فيشعر القارئ بأنه يعيش معهم حياة كاملة يجسدها السرد الفنى وتفوح منها رائحة الواقع فى حارات القاهرة القديمة الضيقة التى أبدع فى التعبير عن جواهرها كما عن صفيحها، وفى شوارعها الحديثة أيضا.

واستخدم فى إبداعه لغة أدبية جميلة أنيقة ولكنها صارمة صرامة لغة العلم. وأنقذ، بذلك، لغة الضاد من الاستغراق فى السجع والمحسنات البيانية والبديعية التى خضعت لها قبله. انتصر لروعة القص على جمالية اللغة التى بقيت، مع ذلك، بين يديه جميلة بليغة. ونجح، بذلك،

فى توسيع نطاق قراء الرواية العربية التى صارت بفضله، وجهود بعض معاصريه، فنا منتشرا فى كل بلد عربى وفى مختلف الأوساط.

ولذلك كله، ولغيره كثير، فهو يعد مؤسس الرواية العربية الحديثة أو رواية القرن العشرين، وصانع الأدب الذى يتنفس ويفيض بالحياة. وفى هذا كله، تناول نجيب محفوظ الكثير من فئات وشرائح المجتمع المصرى وأوجه الحياة فيه إلى الحد الذى يتيح لنا أن نعيد قراءة أدبه باعتباره وصفا لهذا المجتمع وتحليلا للكثير من تفاعلاته وتشريحا لغير قليل من مشاكله.

وهذا هو ما يفعله الباحث الدؤوب المدقق مصطفى بيومى فى هذه السلسلة التى يقدمها مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع احياء للذكرى المئوية الأولى لميلاد نجيب محفوظ. فهو يغوص فى أعماق شخصيات نجيب محفوظ ويسعى إلى تحليل التجليات الحياتية لسلوكها وعلاقاتها وتناقضاتها ومشاكلها، ويبلور ما يمكن اعتباره وصف نجيب محفوظ لمصر فى القرن العشرين.

وإننا إذ نأمل أن تلقى هذه السلسلة ضوءا جديدا على المجتمع المصرى فى القرن العشرين من خلال أدب نجيب محفوظ إنما نقدمها مشاركة فى حب عميد الرواية العربية ومساهمة فى التراكم المعرفى بشأن أدبه.

د. وحيد عبد المجيد

مقدمة

يحظى القرآن الكريم بمكانة بالغة الأهمية فى عالم نجيب محفوظ، الروائى والقصصى، وهو ما يتناسب مع جلال القرآن وقداسته فى الحياة المصرية، التى يحرص الكاتب الكبير على تجسيد كل مفرداتها.

للقرآن الكريم جانبان متكاملان متداخلان، أولهما دينى خالص يتعلق بالعبادات والأحكام وأصول العقيدة، ومن خلاله تتضح معالم الشريعة ومرتكزات الفكر وملامح الإسلام النقى، وهذا كله مما ينشغل به العلماء والمثقفون والمتخصصون. الجانب الثانى دنيوى شعبى، حيث الاندماج والتواصل بين الدين والدنيا، وتباين الأفكار والمصالح والتوجهات، بما ينعكس على آليات الفهم والاستخدام.

القرآن الكريم، فى أدب نجيب والحياة التى يعبر عنها، وثيق الصلة بالعلاقات التى تحكم البشر، فهو ليس نصا يُقرأ فى الصلوات ويُدرس فى المساجد والمعاهد، بل إنه حاضر فى القلوب والعقول، ومتغلغل فى كافة تفاصيل الحياة، ومندمج فى الإيقاع اليومى المعتاد، فلا تمر لحظة واحدة بمعزل عن الاستعانة به والاتكاء عليه.

اليقين الراسخ، الذى لا يحتمل جدالا أو نقاشا، أن المسلمين جميعا، فى مصر وخارجها، لا يختلفون حول حقيقة النص القرآنى الذى لا يعرف التبديل ولا يطوله التحوير، لكنهم بالضرورة يختلفون كثيرا حول فهمه وتفسيره واستنباط مقاصده وكيفية التواصل معه، وذلك مردود إلى تباين الثقافة واختلاف المصالح وتعدد الأهواء.

فى هذا السياق، فإن الاحتكام إلى القرآن الكريم لا يقود دائما إلى اتفاق، فالنتائج مختلفة بالنظر إلى طبيعة الرؤى، والموقع الاجتماعى.

العاديون من الناس، بشكل فطرى عفوى، يبحثون فى كتابهم الكريم المقدس عن المعنى والمصلحة، مبتعدين عن التناقض الوهمى بين الدين والدنيا، والعلماء المتخصصون يتجادلون ويختلفون فى التفاصيل التى قد يعز فهمها على غيرهم، والحياة مستمرة عبر مزيج مركب من تفاعل الأقلية والأغلبية.

من هذا المنطلق، الذى يعلى من شأن الرابطة الوثيقة بين الدين والدنيا، يمكن دراسة الموقع الذى يحتله القرآن الكريم فى أدب نجيب محفوظ، من خلال فصلين. الأول عن «القرآن الكريم والحياة»، والثانى «قراءات تطبيقية».

يضم الفصل الأول عشرة مباحث:

- مكانة القرآن
- قارئ القرآن
- القرآن والموت
- تعليم القرآن
- القرآن حاميا
- القرآن والسياسة

- القرآن والإعلام
- القسم بالقرآن
- نهاية المطاف
- القرآن والفكاهة

هذه المباحث، فى جملتها، تشكل رؤية بالغة العمق والدقة، للموقع الذى يحتله القرآن الكريم فى الحياة المصرية، على اعتبار أنه دين ودنيا. وقد يكون التمييز الصارم ضروريا ومطلوبا بين المستويين، لكن إغفال التداخل بينهما ليس ممكنا.

الفصل الثانى يتوج المكانة العامة، المتجسدة فى الفصل الأول، ويتجاوزها إلى نماذج عملية عبر عينات دالة، تبدأ بالبسملة، وتنتهى بسورة الإخلاص، ذات التأثير الاجتماعى المنتشر، مرورا بالفاتحة وآيتين من «سورة البقرة».

المأمول أن ينجح فصلا الدراسة فى تقديم صورة صادقة، متوازنة موضوعية، عن موقع القرآن الكريم فى الحياة المصرية، كما يرصده ويعبر عنه أدب نجيب محفوظ، المبدع الذى يخلص فى وصف مصر والمصريين، فى القرن العشرين، كما لم يفعل غيره.

الفصل الأول

القرآن الكريم والحياة

مكانة القرآن

فى «قصر الشوق»، يحلم كمال عبد الجواد، وهو بعد فى مطلع حياته الثقافية، أن يؤلف كتابا لا يعرف شيئا عن موضوعه ومحتوياته: «وسيكون مجلدا ضخما فى حجم القرآن الكريم وشكله، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عم يكتب؟، ألم يحو القرآن كل شىء؟. لا ينبغى أن ييأس، ليجدن موضوعه يوما ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه». «٦٦»

على المستوى الشكلى، يتجلى تأثير القرآن الكريم على كمال الحالم بكتاب يستعير من القرآن حجمه وشكله، وعلى المستوى الموضوعى لا مشكلة تواجه المؤلف المنتظر إلا البحث عن موضوع لم يتطرق إليه القرآن، الذى حوى كل شىء.

صدمة وتمرد

ولأن القرآن الكريم يحوى كل شىء، بمفهوم كمال الذى يغفل أنه قرأ عشرات ومئات الكتب غير القرآن، فإن صدمة الشاب المتحمس تكون بحجم الإيمان، عندما يصطدم فى رحلته الثقافية مع عالم الأحياء الإنجليزى تشارلز داروين، صاحب نظرية «النشوء والارتقاء»، وهى نظرية معارضة للدين والقرآن: «وقال لنفسه مرة وعشرا، القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا». «٣٧٠»

انتقال سريع مباغت، بدرجة الحماس نفسها، من الإيمان إلى الإلحاد، وتصور صارم عن القرآن الحاوى لكل شىء، دون مراعاة أن الكتاب

المقدس ليس معنيا بتفاصيل التفاصيل، فهو منهج شامل وليس دراسة متخصصة فى علم من العلوم، أو فى العلوم جميعا.

القرآن حق كله، والمشكلة فى إدراك البشر لحقائق الحياة حتى يتسنى لهم مزيد من الوعى بالحقيقة القرآنية. النظرية العلمية تبقى نظرية لا عصمة لها ولا يقين فيها، ولا ينبغى لها أن تزلزل الإيمان وتؤدى إلى الكفر. النظرية التى هزت كمال عبد الجواد، لم تؤثر بشىء فى الذين يؤمنون ببساطة دون تعقيد. وإذا قيل إنهم من «العوام» الذين يجهلون الشئون العلمية، فإن إيمانهم القوى قد يكون مطمعا للواقفين على شاطئ العلم دون إجادة للسباحة فى بحوره العميقة.

لا علم عند أحمد عبد الجواد وأمينة، والدى كمال، بداروين ونظريته، لكن إيمانهما لا تشوبه شائبة قلق، ويقينهما بصدق القرآن لا يتعرض للشك والاهتزاز. يقول الأب فى ثقة: «عندك حقيقة لا شك فيها، وهى أن الله خلق آدم من تراب، وأن آدم هو أبو البشر، هذا مذكور فى القرآن..». وتقول أمينة: «ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن، قل لهذا الإنجليزى الكافر: إن الله يقول فى كتابه العزيز: إن آدم هو أبو البشر..». «٣٧٢»

أيهما أقرب إلى الفطرة والوصول إلى الراحة المشتهاة: سذاجة الإيمان والجهل، أم معاناة الكفر والثقافة؟!. لا يتحتم الاختيار بينهما، والبديل الأفضل هو الجمع بين الدين والدنيا، بين القرآن والعقل. ليس الأمر ميسورا، لكنه ليس مستحيلا. يحتاج فحسب إلى طراز خاص من البشر، الذين «يمارسون» و«يطبقون» بلا افتعال أو ادعاء.

مصالحة مثالية

العجوز محتشمى زايد، فى «يوم قتل الزعيم»، لا يجد نفسه مضطرا إلى الاختيار بين الدين والدنيا، فهو يجمع بينهما ببساطة أخاذة: «يهمنى القرآن والحديث كما يهمنى الانفتاح وكما تهمنى لقمة المدمس بالزيت الحار والكمون والليمون». «٨»

والطفل الراوى فى قصة «المهد»، مجموعة «القرار الأخير»، يحقق المعادلة نفسها: «أما مسرة الأذن فحديثها يطول. تنهمر من الأفراح والليالى الملاح والفونوغراف مرددة تلاوة المقرئين وطقاطيق العوالم والأغانى.. ولكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى..». «١٢»

هل من تناقض بين القرآن الكريم والطعام، وبين تلاوة المقرئين وأغنيات المرح والفرح؟!. الصياغة المثلى تنفى وجود المفارقة: لكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى. للقرآن وقت، وللأغانى وقت. الحياة لا تنفى الدين، والدين لا يفسد الحياة.

إذا كان كمال عبد الجواد عاطفيا متطرفا فى إيمانه وكفره، فإن العجوز المجرب، الذى عرف الإلحاد والشك واللا أدرية فى مراحل عمره المتعاقبة، والطفل البرئ الذى يتعامل بالفطرة والإحساس الصادق، توسطا فانسجما بلا نشاز.

الجمع بين القرآن والغناء شىء، والتفريط فى الدين إلى درجة الإهمال، والانكباب على الدنيا إلى درجة الإفراط، شىء آخر.

عزت عبد الباقى، فى «عصر الحب»، يعانى من فراغ طويل ممتد، ولا يقرأ بدافع الحب إلا القرآن والقصص البوليسية. «٤٣»

وسرعان ما يتخلى عزت عن القرآن، وينغمس فى القصص البوليسية وحدها. بعدها، يندفع بكليته إلى هاوية لا ينسجم القرآن معها ولا تتسع له.

مثل هذا التفريط المخل نجده فى قصة «تيزة أم عزيز»، مجموعة «القرار الأخير»، حيث يجمع عزيز بين جملة من المتناقضات، تفضى به إلى حالة من التمزق: «يدخن ماتوسيان ويفسر القرآن وفى بعض ليالى السمر يشرب الويسكى ويغنى ولا يفوته فرض». «٥٤»

لا تشكيك فى إيمانه ولا حجر على حريته، لكن الويسكى لا يتجانس مع القرآن، والمصير المنطقى الحتمى هو السقوط فى دوامة الإفلاس الروحى والمادى معا!.

فى عالم نجيب محفوظ، استيعاب شامل للمكانة الفريدة الجليلة التى يحتلها القرآن الكريم فى الواقع المصرى: كتاب مقدس يبجله ويحترمه بشر لا يمتون إلى القداسة بصلة، لكنهم فى مواجهته يتنبهون ويعرفون قواعد التعامل، التى يمليها ويفرضها العرف الاجتماعى الراسخ، الموروث والمكتسب.

قداسة دينية واجتماعية

لا علاقة حقيقية لسرحان الهلالى، فى «أفراح القبة»، بالدين، لكنه كصاحب ومدير فرقة مسرحية ينبه صديقه الممثل طارق رمضان إلى خطأ فاحش: «ولحنت فى آية وهو شىء لا يُغتفر». «١٨»

ليس الخطأ غير المقصود، فى القرآن، مما يقبل الغفران. ومن الذى لا يغفر؟. المجتمع كله.

فى حياة أحمد عبد الجواد ممارسات كثيرة مخالفة للدين، لكنه يقف أمام القرآن خاشعا خائفا، ويأبى أن يستشهد فى مساجلة مع ابنه، فى «بين القصرين»، بآية لا يحفظها وإن كان واعيا بمعناها: «فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يُغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه». «٤٠١»

الحديث ثنائى لا علنى، ولن يعرف أحد بالخطأ الذى قد يقع فيه، والخوف من «الذنب» الذى سيطوله وإن جهله الناس. الخوف هنا من الله وليس من المجتمع وأفراده، وهو خوف أكثر أهمية لأنه يكشف عن مدى تغلغل وتأثير وقداسة النص القرآنى عند عامة المسلمين.

حتى استغلال القرآن واستثماره، لأهداف ومصالح شخصية، يكشف عن خطورة وعظمة التأثير فى الحياة الاجتماعية.

واحد من تلاميذ عالم التراث عباس فوزى، فى «المرايا»، يستغل ثقافته التراثية فى تأليف كتب دينية عن النبى والقرآن، ويربح من ذلك أموالا خيالية. «٢٣٦»

الربح «الخيالى» نتيجة لزيادة توزيع الكتب، وليس هذا الرواج إلا دليلا على أهمية وانتشار كل ما يمت إلى القرآن بصلة.

وهل أدل على مكانة القرآن، فى المجتمع المصرى، من ذلك الاعتزاز البالغ الذى يظهره العاديون من الناس بما يعتقدون أنه علاقة وثيقة تربطهم بالقرآن، وتعلى من مكانتهم وشأنهم؟!.

كان أبو أمينة، كما يرد فى «بين القصرين»، شيخا من العلماء الذين فضلهم الله – لحفظهم القرآن – على العالمين. «٦٢»

لقد فضله الله وميزه واختصه بالنعمة الغالية، فكيف لا تجله أم أمينة وتفخر به؟!. الأم ابنة رجل من حملة كتاب الله، وزوج رجل آخر من حملة الكتاب: «سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله فى صدريهما». «١٩٩»

ويفخر الشيخ عفرة، فى «الحرافيش»، بمهنته كمعلم قرآن، وانتمائه إلى بيت: «خدمة القرآن شرفه وعزته». «١٠»

القرآن الكريم نور الحياة للبسطاء الذين لا ينشدون فى حياتهم إلا الأمان والسلامة، ويتطلعون إلى آخرتهم مسلحين بالإيمان والقرآن.

حياة كاملة

القرآن الكريم يصاحب المسلم ويسكنه، ولا يمر يوم فى حياته إلا ويردد عديدا من الآيات فى مناسبات مختلفة، فضلا عن الصلاة.

بالمحفوظ من آيات القرآن الكريم، يمارس بعض شخوص نجيب تلاوة

سرية باطنية، تعبر عن درجة إيمانهم ومدى رغبتهم فى التواصل الدائم مع القرآن.

فى «بين القصرين»، وفى انتظار بداية العمل، يقف جميل الحمزاوى، وكيل السيد أحمد عبد الجواد فى الدكان، تاليا ما تيسر له من الآيات فى صوت باطنى غير مسموع: «دلت عليه حركة شفتيه المستمرة، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد». «٣٦»

وفى انتظار جمع الأقساط الشهرية من الموظفين، فى إحدى الإدارات الحكومية، يقف بائع السمن فى قصة «دنيا الله»: «وشفتاه تتحركان بتلاوة مستمرة». «٨»

والبواب عمارة الجعفرى فى قصة «أمشير»، مجموعة «الشيطان يعظ»، يجلس عادة على أريكته أمام بوابة القصر: «هادئ النظرة تتحرك شفتاه الغليظتان بتلاوة غير مسموعة». «٥٠»

وإذ يدعو نور الدين أمه كليلة الدمر، فى «ليالى ألف ليلة»، تأتيه عجوز: «متحركة الشفتين بتلاوة غير مسموعة». «٩٧»

عامل فى دكان، وبائع متواضع، وبواب سراى، وامرأة متهالكة عجوز؛ جميعهم من البسطاء محدودى الثقافة والمكانة الاجتماعية، ويتمثل إيمانهم العفوى فى التلاوة السرية التى تحقق لهم قدرا من التواصل والتوازن مع الحياة المليئة بالتعب والهموم. القرآن الكريم نور حياتهم، يصاحبهم ولا يتخلون عنه، فهو الحصن المنيع والمأوى المريح والملاذ الآمن.

ولأن إقامة الصلاة لا تتم إلا بالقرآن، فإن الكثيرين يقتصر حفظهم على مجموعة من السور القصيرة التى تتيح لهم أداء الصلاة.

فى زيارة الشكر التى يقوم بها أحمد عبد الجواد للمسجد الحسينى، فى «قصر الشوق»، بعد شفائه من المرض الخطير الذى ألزمه الفراش ووقف به على حافة الموت، يتلو: «ما تيسر من السور القصار التى يحفظها». «٤٥٥»

وهو لا يحفظ من القرآن، كما يتجلى فى «بين القصرين»، إلا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته. «٤٠١»

والأمر نفسه نجده عند زوجة فؤاد أبو الخير فى قصة «كلمة فى السر»، مجموعة «بيت سئ السمعة»، فهى: «تتلو بعض السور القصار التى تقيم بها صلواتها الخمس». «٨٠»

وبيومى سائق الكارو، فى «حضرة المحترم»، لا يرى وظيفة للكتاب إلا أن يحفظ ابنه عثمان من القرآن ما يقيم به الصلاة: «ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟». «١٣»

أما راضية معاوية القليوبى، فى «حديث الصباح والمساء»، فلا تتجاوز معرفتها الدينية الصلاة والصوم وبعض السور الصغيرة». «٩٠»

السور القرآنية الصغيرة ميسورة الحفظ ويصعب نسيانها، والدليل على ذلك أن الفتوة الأسطورى عاشور الناجى، فى «الحرافيش»، ينسى ما حفظه من القرآن فى طفولته: «فلم تبق له إلا السور الصغيرة التى يتلوها فى الصلوات». «٢٦»

المسلم صحيح الإيمان يصلى خمس مرات فى اليوم، وفى كل صلاة يردد آيات من القرآن الكريم، فكيف لا يؤثر الكتاب العظيم المقدس فى حياته وفى نظرته إلى حيوات الآخرين؟!.

قارئ القرآن

إذا كان كل المسلمين قادرين على قراءة القرآن الكريم ومطالبين بذلك، فإن طائفة منهم تمتهن القراءة وتحترفها مقابل أجر. بعض هؤلاء القراء من «نجوم» المجتمع ومشاهيره، والغالبية منهم تقبع فى قاع السلم الطبقى.

الأشهر والأهم، فى عالم نجيب محفوظ، هو الشيخ على محمود، قارئا للقرآن الكريم ومنشدا للتواشيح الدينية والمدائح النبوية ومؤذنا ساحر الصوت له عاشقوه المتيمون به.

الآذان بصوته، مع غناء عبده الحامولى وأم كلثوم، أجمل ما تسمع الأذن عند المعلم زفتة، مدمن المخدرات الذى لا يفيق فى «خان الخليلى». «١٤٤»

وهو، فى «المرايا»، من علامات ورموز حى الحسين، وليلته السنوية التى يحييها فى المسجد الحسينى مما يؤرخ به. «٢٢٣»

نجوم القراءة

ثمة صداقة وثيقة تجمع الشيخ، فى «ميرامار»، بأحد أهم أبطال نجيب محفوظ، وهو عامر وجدى». «٢٣»

لكن الغالب على وجود الشيخ، عند نجيب، هو إبداعه الفنى أكثر من مكانته كقارئ للقرآن الكريم.

ومن نجوم التلاوة الشيخ الشعشاعى، الذى يشارك فى سرادق العزاء الذى يقيمه صادق صفوان، فى «قشتمر»، بعد وفاة أبيه. «٧٤»

القاعدة السائدة، عند نجيب، أن «كبار» القارئين يشاركون فى المناسبات الخاصة بـ «كبار» القوم من الأغنياء والأعيان.

فى «خان الخليلى»، مطلع الأربعينيات فى القرن العشرين، يتحدث كمال أفندى خليل عن ليالى رمضان قبل ربع قرن من حديثه: «وكيف كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طوال الليل تستقبل القاصدين، وتستقرئ مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر». «٨٠»

وينتبه كمال عبد الجواد، فى «قصر الشوق»، إلى المفارقة اللافتة بين استهتار الشقيقين حسين وعايدة شداد بالدين وفروضه، واحتفاء الأسرة بشهر رمضان: «أنوار تضاء، قرآن يتلى فى بهو الاستقبال، المؤذنون يؤذنون فى السلاملك». «٢١٦»

وفى قصة «أم أحمد»، مجموعة «صباح الورد»، يتذكر الراوى تجاور الطبقات وتجاوز الفوارق الاجتماعية فى الحارة التى شهدت طفولته: «والسرايات التى كانت تفتح أبوابها لأهل الربع فى رمضان والأعياد، يجلسون فى الحديقة، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين». «٩»

العائلات الكبيرة وحدها، لأنها ثرية ومستطيعة، هى القادرة على الاستعانة بالكبار والمشاهير من قراء القرآن. الطبقية فى المجتمع، والطبقية أيضا

فى صفوف القراء الذين ترتفع أجورهم وتنخفض، تبعا لمكانتهم ودرجة إتقانهم لفنهم. القرآن قيمة مقدسة، أما «العرض والطلب» فينصرفان إلى حلاوة الصوت ودرجة الشهرة وذيوع الصيت.

قوانين السوق

الشيخان على محمود والشعشاعى، وأمثالهما من النجوم، ينتمون إلى الطبقة العليا من القراء، ويعملون فى خدمة الطبقة العليا من المجتمع المصرى، أما الطبقة الوسطى فينتمى إليها أشباه الشيخ محمد كناشة، القارئ المحترف للقرآن الكريم فى قصة «صباح الورد»: «لا هو من المشاهير مثل على محمود وإسماعيل ندا، ولا هو أيضا من قراء المواسم فى القرافة، ولكن فى منزلة متوسطة ضمنت له رزقا لا بأس به». «٩٢»

الغالبية العظمى من القارئين تنتمى إلى القاع.

عيسى الدباغ، فى «السمان والخريف»، يستعين بقارئ يتلو على روح أمه فى المنزل، وهو موصوف بأنه: «مقرئ من الدرجة الثالثة». «١١٢»

ماتت أم عيسى بعد زوال مجد أبنها وضياع نفوذه، ولو أنها ماتت قبل ذلك لكان القارئ من الدرجة الأولى!. وليست الدرجة الثالثة هى الدرجة الأخيرة، فبعدها درجات ودرجات، وإلا ففى أى مكان نضع القارئ الضرير الذى ينقده عثمان بيومى، فى «حضرة المحترم»، أجرا لا يزيد عن نصف قرش؟!. «٢١»

القرآن الكريم مقدس وجدير بكل الاحترام والإجلال، أما قراء القرآن فلهم شأن آخر.

فى قصة «كلمة غير مفهومة»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، يظهر الشيخ درديرى: «مقرئ ضرير، يتعيش من التلاوة فى المقاهى والغرز وتروج «سوقه» فى المواسم»!.

وعندما يعلن الشيخ أنه يعرف مكان ابن حسونة، غريم الفتوة الجبار: «حاز فى ثوان أهمية لم يحظ بعشر عشرها طيلة عمره البالغ الستين». «١١»

إذا توقفنا عند المفردات الدالة فى المقتبس السابق، لأدركنا أنه لا تناقض على الإطلاق بين عظمة القرآن الكريم وضآلة محترفى القراءة: «يتعيش من التلاوة»، «المقاهى والغرز»، «تروج سوقه»، «لم يحظ بعشر عشرها».

إنها مهنة للرزق، تخضع لقوانين السوق، وذات عائد مادى محدود فى أغلب الحالات. وبالمقاييس الاجتماعية والاقتصادية السائدة، لا مكانة لأصحاب هذه المهنة، ذلك أن الجميع يتعاملون مع «الشخص» دون «مادة» عمله!.

وعندما يتطوع درديرى لخدمة الفتوة ويركب عربته، فإنه لا يجد له مكانا إلا عند الأقدام!. «١٣»

لا مكان له، لدونية مكانته، إلا تحت الأقدام!. القرآن الكريم مقدس ومبجل ومحترم، أما القارئ الذى «يسترزق» ويبحث عن «سوق»، فليس إلا صاحب مهنة!.

تنكيت وتبكيت

الشيخ درديرى عجوز فى الستين، ضرير، ذو مكانة وضيعة؛ وهو بذلك يمثل الأنموذج التقليدى السائد للقارئ المتواضع الأكثر شيوعا، فى الواقع الاجتماعى وفى عالم نجيب محفوظ معا.

والشيخ طه الشريف فى قصة «زيارة»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، أنموذج مشابه للشيخ درديرى، فهو ضرير عجوز عليل، وهو لا يجد حرجا من الشكوى والاحتجاج على «المنافسة» غير العادلة التى يمثلها الراديو: «جرت مشيئة الله بأن يقطع الراديو أرزاقنا ولكن الله لا ينسى عبده». «١٧٢»

ليس أدل على تدهور المكانة الاجتماعية للرجل، من أن الخادم عدلية، ومكانة الخادمات لا تحتاج إلى توضيح، تقول لسيدتها بعد انصرافه: «ولكنه رجل قذر يا ستى!». وإذ تدافع عنه السيدة، وهى فى الحقيقة تدافع عن نفسها وتاريخها، تواصل الخادم حملتها الانتقادية بقولها: «لقد رأيت قملة على جبته يا ستى». «١٧٥»

حتى الخادمة تتأفف منه وتشكو من قذارته!.

على من «يُعطف» القارئ المتواضع عند نجيب محفوظ؟!. إنه محسوب على الشحاذين والرعاع!.

فى الحكاية الثامنة من «حكايات حارتنا»، ذكريات للراوى عن مواسم القرافة فى طفولته: «ثم تتم المسرات بمراقبة المقرئ الضرير وجماعات الشحاذين المتكالبين على الرحمة». «٢٠»

وفى قصة «جوار الله»، مجموعة «دنيا الله»، لا يملك عبد العظيم أفندى شلبى خبرة كافية لمواجهة الطقوس المصاحبة للموت، ويكتفى بمتابعة قريبه الحاج مصطفى: «وهو يساوم الترابى وينفخ السقاء بشئ من الجود، وكذلك المقرئين، وارتفع صوته الجهير وهو يزجر الطامعين بغلظة». «٤٧»

أما فى قصة «الخوف»، مجموعة «بيت سىء السمعة»، فيذوب القارئ الأعمى فى نسيج شعبى عريض، لا يتميز فيه عن بائع الكبدة ونادل القهوة وغيرهما من أصحاب المهن المتواضعة. «٩٨»

أليس منطقيا إذن، وهذه حدود مكانتهم، ألا ينجو هؤلاء من التنكيت والتبكيت والسخرية اللاذعة؟!.

فى ثورة من ثورات غضبه، يقول المعلم كرشة، فى «زقاق المدق»، لابنه حسين الطموح إلى الزواج من «بنت ناس طيبين»:

«- ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك؟!

فتأوهت أم حسين قائلة:

- الله يرحمك يا أبى كنت فقيها وقورا.

فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال:

- فقيه!.. كان قارئ قبور، يتلو السورة بمليمين!

فقالت المرأة متوجعة:

- كان يحفظ كلام الله وكفى». «١١٣»

قارئ قبور يتلو السورة بمليمين!، وبسبب مهنته المتدنية ومستواه الاقتصادى المتواضع، فهو لا يستحق الاحترام عند المعلم كرشة، ولا يحظى بدفاع حار من ابنته، التى تسلم بضآلته وترفع من شأنه، قليلا، لأنه حافظ لكلام الله.. و «كفى»!.

وقبل أن تحل الدهشة من سخرية كرشة، وهو الفاسد الشاذ جنسيا ذو السمعة السيئة، ينبغى الالتفات إلى ترفع زيطة صانع العاهات، فى الرواية نفسها، من تشبيهه بقارئ القرآن على القبور!. فإذ يخاطبه زبون من طالبى العاهات بكلمة: يا أستاذ، يغضب زيطة ويصيح به محتدا:

«- أستاذ؟!.. أسمعتنى أقرأ على القبور؟

فدهم غضبه الرجل، وبسط راحتيه مستعطفا وقال بصوت منكسر:

- معاذ الله.. ما قصدت إلا تبجيلك». «١٢٢»

لا تحمل كلمة «الأستاذ» شبهة التهكم أو الاستهانة، والزبون فى حاجة ماسة إلى خدمات صانع العاهات، والمستهدف من كلمته هو المبالغة فى الاحترام والتبجيل، لكن زيطة يربط بين الكلمة وقارئ القبور، فيحتج غاضبا من «فكرة» و «شبهة» مقارنته بهم، أو وصفه بصفة تطلق عليهم!.

المعلم كرشة يشتم ويسخر، وصانع العاهات يتعالى ويترفع، والعالمة زبيدة، فى «قصر الشوق»، تتأفف من صوت أم كلثوم فى بداية ظهورها، مستعينة على ذلك باستدعاء هيئة القارئين وأصواتهم: «فى صوتها شىء يذكر بالمقرئين؛ كأنها مطربة بعمامة!». «٤٣٨»

لا احترام لصاحب المهنة ولا مكانة له، لكن المهنة نفسها ضرورية لا غنى عنها بوظائفها المتعددة التى تشكل ملمحا جوهريا وعنصرا مألوفا فى الحياة المصرية اليومية.

طقوس الموت

لا يكتمل الموت، طقسا اجتماعيا، إلا بوجود سرادق العزاء، وقارئ القرآن فيه. هذا ما يفعله صادق صفوان، فى «قشتمر»، حيث استعان بالشيخ الشعشاعى، ويفعله العشرات غيره. إنها حاجة ضرورية، تبدأ فى القبور قبل أن تنتقل إلى السرادقات والبيوت.

فى «السكرية»، بعد وفاة السيد أحمد عبد الجواد، تجتمع الأسرة حول قبره: «وتنوح خديجة حتى ينال منها الإعياء، ثم تؤمر بالسكوت تأدبا لاستماع القرآن». «٢٧٤»

الاحترام مطلوب فى حضرة القرآن الكريم، والاجتماع الأسرى لا يكتمل معناه بمعزل عن القراءة والقارئ. بهذه القراءة، كما نجد فى قصة «القرار الأخير»، يرقد الموتى فى سلام: «ويتلقون من الزيارة والتلاوة أنسا ورحمة». «٩»

والتلاوة الجماعية من المحترفين، فى «السمان والخريف»، هى ما يتنحى عيسى الدباغ جانبا حتى لا يسمعها، من شدة التأثر عند دفن أمه. «١١١»

وهى التلاوة نفسها التى يستمع إليها عبد العظيم أفندى فى قصة «جوار الله»، مجموعة «دنيا الله»: «منبعثة من صوت كئيب كأنما تنبعث من خزانة للأحزان». «٤٦»

الأرواح تهتز فى المشهد المهيب، و «خزانة الأحزان» لا تتوقف عن الامتلاء والنضوب، تمهيدا لامتلاء جديد.

فى لحظات الوداع الشجنية، يشتد الاحتياج إلى القرآن الكريم، ولا تقتصر القراءة، فردية كانت أم جماعية، على القبور وحدها، ففى سرادقات العزاء، وبيوت الموتى، تستمر القراءة، استنزالا للرحمة، وطلبا للمغفرة، فضلا عن «الواجب» الاجتماعى!.

فى «اللص والكلاب»، يحلم سعيد مهران أنه يستمع إلى قرآن يتلى، فيوقن أن شخصا قد مات. «٨٤»

وفى قصة «قاتل»، مجموعة «دنيا الله»، يكمن بيومى لتنفيذ حكم الإعدام، كقاتل أجير، فى الحاج عبد الصمد، الذى يؤدى واجب العزاء، ومن مخبأه فى الخرابة تترامى إليه التلاوة من سرادق العزاء..!. «٩٤»

وفى دار المناسبات، يستمع محتشمى زايد، فى «يوم قتل الزعيم»، إلى التلاوة القرآنية، وهو يؤدى واجب العزاء فى آخر أصدقائه. «٦٥»

التلاوة القرآنية ترادف الموت، وهى ضرورة لا غنى عنها. فى لوحة «الهجر»، أصداء السيرة الذاتية، تأتى البداية على النحو التالى: «لم أشعر بأنه مات حقا إلا فى مأتمه.

شغلت المقاعد بالمعزين وتتابعت تلاوة القرآن الكريم». «٤٧»

لقد مات الميت بطبيعة الحال قبل السرادق والتلاوة، لكن هذه الممارسة الطقسية الاحتفالية هى التأكيد الاجتماعى والإشهار «الرسمى» لحالة الموت!.

ضرورة اجتماعية

تنتقل القراءة القرآنية إلى البيوت، حيث تمثل جزءا من طقوس الموت التى يعددها الحاج مصطفى فى قصة «جوار الله»، مجموعة «دنيا الله»: «فإذا قضى الله قضاءه سأحضر المغسلة، ثم نكفنها وندفنها ولو آخر النهار، أليس إكرام الميت دفنه؟ وأنت يا عبد العظيم أفندى لا تحب وجع الدماغ ولا الكلام الفارغ، بعد ذلك نجئ بمقرئ فيقرأ سورتين هنا فى حجرتها». «٣٧»

تغسيل الميت وتكفينه ودفنه والقراءة على روحه؛ منظومة متكاملة مسلسلة يحفظها الرجل العملى عن ظهر قلب، ويتخلص بها من الموت والميتة ليفرغ للحياة والأحياء!.

طقوس مرعية تبلغ من القوة والانتشار إلى الدرجة التى لا يتخلى عنها شخص «بلا دين» مثل صابر الرحيمى، فى «الطريق»، وهو يودع أمه «القوادة»: «هذا صوت القرآن يتلى فى غرفة المرحومة». «١٦»

مخالفة هذه «التقاليد» الراسخة، شذوذ يستحق الإدانة ويثير الدهشة ويشكك فى حب الأحياء لفقيدهم. ولقد كان التعامل مع موت شكرى بهجت، فى قصة «صباح الورد»، بعيدا عن السائد والمألوف فى عصره: «ونشرت الأسرة نعيه معلنة الاقتصار على تشييع الجنازة. لم يكن ذلك شيئا مألوفا فى ذلك الزمان، ولم يكن يصرف الأهل والأصدقاء عن زيارة البيت والاستماع إلى ترتيل القرآن. وذهب الجيران للعزاء فوجدوا البيت مغلقا وخاليا من أهله. ودهش الناس لحد الانزعاج، وعجزوا عن

التوفيق بين ذلك السلوك وبين ما عرف عن الزوجين من حب وتوفيق، وارتفع النقد حتى بلغ كبد السماء». «٥٩»

يقدم الابن سامح تفسيرا منطقيا وجيها: «الحزن فى القلب لا فى السرادق، نحن لا نؤمن بهذه التقاليد، وماذا يفعل المعزون سوى أن يتسامروا كأنهم فى مقهى؟!.. من أجل ذلك غادرنا البيت وانفردنا بحزننا فى وقار ودون طقوس أو تمثيل».

تبرير عاقل حكيم، لكنه لا يقنع أحدا، ويجلب إلى الأسرة غير التقليدية اتهامات تتراوح بين الجنون والضن بإنفاق «قرشين» تحية لذكرى الرجل!. «٦٠»

لا يعترف المجتمع بالموت دون احترام طقوسه، وفى القلب منها تلاوة القرآن الكريم.

بعيدا عن الموت

لا تقتصر قراءة القرآن الكريم على الموت وحده، فهى عادة ملازمة لبعض التجار فى أماكن عملهم، وموجودة فى الأفراح أحيانا، ونصادفها أيضا فى الاحتفالات والمناسبات السياسية.

فى قصة «حلم نصف الليل»، مجموعة «بيت سىء السمعة»، يتوسع عبده الجزار فى تجارته: «وافتتح المحل الجديد بتلاوة من مقرئ حسن الصوت». «٢٣»

أما أحمد عبد الجواد، فى «بين القصرين»، فيأتيه فى الدكان شيخ ضرير للقراءة كل صباح. «٣٦»

ولا تخلو الأفراح من قراءة للقرآن الكريم على سبيل «البَركة»، وهو ما نجده فى حفل زواج حسن سليم وعايدة شداد فى «قصر الشوق». «٣٤٥»

ويبدأ المؤتمر الوفدى الكبير، احتفالا بعيد الجهاد فى «السكرية»، بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، ويتعمد القارئ، ولا شك أنه وفدى، اختيار آيات تحض على القتال والجهاد. «٤٣»

والحفل الانتخابى للمرشح المستقل إبراهيم فرحات، فى «زقاق المدق»، يبدأ بقارئ يتلو ما تيسر من الذكر الحكيم. «١٥٢»

عبده القصاب مغتصب لأموال زوجه الغنية وابنها اليتيم، وأحمد عبد الجواد ليس كامل التدين والتقوى بدليل معاقرة الخمر وتعدد العلاقات النسائية فى حياته، وآل شداد غير وثيقى الصلة بالإسلام وتعاليمه وأوامره ونواهيه، والوفديون يناضلون سياسيا ضد حكم الأقلية، وحفل إبراهيم فرحات مسخرة هزلية بما تتضمنه الفقرة الدعائية من مونولوجست شعبى وراقصة عارية؛ لكنهم جميعا «يتبركون» بالقرآن ويستعينون بالقراء المحترفين، ثم يمارس كل حياته فى سبيل أهداف وغايات لا علاقة لها بالدين والقرآن!.

قد يكون قراء القرآن الكريم، باستثناء الأفذاذ والنجوم منهم، فى قاع المجتمع بلا مكانة أو احترام، لكن المهنة نفسها، بمادتها ومحتواها، ضرورة منتشرة فى المآتم والأفراح والبيوت والمقابر والاحتفالات السياسية والدكاكين. ومثل كل مهنة، فإنها تضم الكبار والمتوسطين والصغار، والمعيار الأساسى فى التقسيم هو مستوى الدخل، الذى يحدد بدوره المكانة والمنزلة الاجتماعية.

قراءة القرآن مهنة قديمة، نجد جذورها، عند نجيب محفوظ، فى مرحلة تاريخية مبكرة، من خلال شخصية الشيخ عدلى الطنطاوى، قارئ القرآن الضرير فى «رحلة ابن فطومة»، التى تدور أحداثها فى زمن يصعب تحديده، لكنه بالضرورة ليس حديثا أو معاصرا. «١٢»

وللمهنة تنظيمها «النقابى» ممثلا فى «رابطة القراء»، التى نجد إشارة لها فى «خان الخليلى»، حيث يحرص عاكف أفندى الأب على شهود الاحتفال السنوى الذى تنظمه الرابطة، احتفالا بليلة القدر. «٩٧»

و «المواصفات» اللازمة للعمل بقراءة القرآن الكريم، نجدها بشىء من التفصيل والتحديد فى «الحرافيش»، فإذ يعلن الشيخ عفرة عن رغبته فى أن يجعل من عاشور الناجى قارئا للقرآن مثله، يسخر درويش من رغبة شقيقه قائلا: «ألا ترى أن هيكله الضخم جدير بأن يلقى الرعب فى قلوب المستمعين؟!». لا يحفل الشيخ بتعليق درويش، لكنه يضطر إلى العدول عن رغبته عندما يتضح له أن حنجرة عاشور لا تسعفه بحال: «وأنها عاجزة عن تطويع النغم، لاحظ لها من الحلاوة والمرونة وكأنها بخشونتها ترن فى جوف قبو، فضلا عن قصوره عن حفظ السور الطويلة». «١٢»

الشروط المطلوبة لاحتراف المهنة، والتى يفتقدها عاشور، واضحة محددة: حنجرة قادرة على تطويع النغم، حلاوة الصوت ومرونته، حفظ كل أو معظم السور القرآنية. إذا غابت هذه المواصفات تعذر «الاحتراف»،

لأن النفور سيتحقق وينصرف «الجمهور» ويتبخر الأمل فى الرزق والربح، خضوعا لقوانين «السوق» التى تجذب «المستهلك» إلى الأفضل والأجمل والأجود!.

مهنة بلا قداسة

القرآن الكريم مقدس مبجل، ومحترف القراءة إنسان عادى، وربما أقل من العادى، لا قداسة له بفضل مهنته. ألا يسخر المعلم كرشة الشاذ، ويتأفف زيطة صانع العاهات، من قراء القبور؟!. ألا تتعالى على أحدهم خادمة متواضعة مثل عدلية؟.

إنهم، كغيرهم من أصحاب المهن، فئة غير متجانسة أخلاقيا وسلوكيا، وتضم الصالح والطالح.

الشيخ جابر عبد المعين، إمام الزاوية وضيعة المرأة الشيطانية فى قصة «أهل الهوى»، مجموعة «رأيت فيما يرى النائم»، بدأ حياته قارئا على القبور، قبل أن يتحول إلى وظيفة الإمام، ويتهمه عم مخلوف، الورع التقى، بالجهل والخداع، كاشفا عن تاريخه الملوث: «ولن تجد عنده رأيا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة التى كان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون أن يفقه لها معنى». «٤١»

يأتى الاتهام العنيف من رجل صالح، يفصل تماما بين الشخصية الشريرة ومادة عملها، فهو يجل القرآن الكريم عن أن يتمسح به ويدعى الانتماء إليه أمثال الانتهازى جابر.

حفظ بعض السور القصيرة وترديدها، لاكتساب الرزق فى المواسم، لا يعنى فهما للقرآن الكريم ووعيا بأبعاده، ولا يقود إلى بناء شخصية خيرة، تليق بنور القرآن الذى تعمل فى رحابه. الشيخ جابر يتخذ من قراءة القرآن الكريم «مهنة»، لكنه لا يلتزم بالأحكام الدينية، ولا يتوافق سلوكه المشين مع جلال القرآن.

وتتسع طائفة القراء لأمثال الشيخ على بلال، فى «حديث الصباح والمساء»، وهو تلميذ الشيخ معاوية القليوبى، وزوج ابنته شهيرة: «أحد تلاميذه من قراء القرآن الكريم، ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور». «١٢٤»

ما الذى حدث للشيخ ذى الصوت العذب والنشأة الدينية؟ لقد انقلبت حياته رأسا على عقب: «أغراه صوته وأصدقاؤه بإنشاد المدائح النبوية فى المواسم، فاتسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتى دُعى لإحياء بعض الأفراح بإنشاد المدائح، وفى ذلك الجو المعبق بالأفراح والليالى الملاح جُرت رجله لتدخين الحشيش. وأخيرا اقترح عليه أحد الملحنين أن يتحول إلى مطرب متنبئا له بمستقبل وردى. واستجاب للدعوة بقلب طروب، ولم يجد بأسا فى هجر السور الشريفة ليغنى «أوع تكلمنى بابا جى ورايا» و«أرخى الستارة اللى فى ريحنا» و «الهف يالا بف يا سمك مقلى» ونجح فى ذلك نجاحا مرموقا وسجل أسطوانات راجت فى السوق وأذاعت اسمه على الألسنة. وضرب عمرو أفندى كفا بكف وقال:

- يا للخسارة..

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجية من إغراءات الوسط

الجديد فقالت له:

- تزوجتك شيخا مباركا فانقلبت إلى عالمة!». «١٢٥»

ينتقل الشيخ من قراءة القرآن وحده إلى إنشاد التواشيح الدينية أيضا، وهو انتقال لا مفارقة فيه ولا انقلاب، لكنه يمهد الطريق أمام مزيد من الانتقالات والتنازلات، التى تفضى فى النهاية إلى هجر السور الشريفة واحتراف الغناء الخليع!. ولعل فى «عينات» الغناء التى يقدمها نجيب محفوظ ما يغنى عن التعليق.

المشترك الوحيد بين المرحلتين المتناقضتين، القراءة القرآنية والغناء المبتذل، هو وجود الصوت الجميل المدرب، أما مادة العمل فهى التى تختلف جذريا، وتهبط بصاحبها من القمة السامية الشامخة، حيث الآيات القرآنية الكريمة، إلى القاع الذى يزدحم بالكلمات المسفة المسيئة.

انقلب الشيخ المبارك إلى «عالمة»، ولم يعصمه القرآن الذى احترف قراءته من الانزلاق إلى الهاوية. عجزت إرادته عن مقاومة الإغراءات، وثبت أن القرآن الكريم لم يتغلغل إلى أعماق قلبه وروحه.

خسارة فادحة تستدعى الحسرة التى يبديها عمرو أفندى، لكنها لا تطول الشيخ إلا فى شخصه، دون مادة عمله الأول المهجور.

تغير المسار، وتبدلت المهنة، وانقلب الشيخ القارئ لآيات الله إلى مطرب محترف ذائع الصيت، حتى يموت متأثرا بالبلبعة وهو يداعب أوتار عوده!. «١٢٦»

لا علاقة للقرآن الكريم بالأمر، فهو يقف بعيدا ومنزها عن ممارسات محترفى القراءة وانحرافاتهم. الذنب فى الانهيار والسقوط والتحول السلبى، مرده إلى الشخصية التى تتعامل مع القرآن كمصدر للرزق، وتنتقل – عندما تتاح الفرصة – إلى مصدر آخر يمنح رزقا أوفرا.

الممارسة الاجتماعية الجمعية الواعية، تمارس الفصل والتفرقة عن إدراك موروث لجلال وعظمة القرآن دون قارئيه، ولقداسته التى لا تنتقل بالضرورة إلى من يتكسبون به فى سوق الحياة!.

القرآن والموت

إذا كانت قراءة القرآن، فى المقابر والسرادقات والمنازل، تمثل لازمة من لوازم الموت، وإذا كان الإعلان الرسمى عن الموت، فى المناسبات السياسية، دائم الاقتران بالقرآن الكريم، فإن العاديين من الناس يلجأون إلى القرآن عند الموت: به يتصبرون ويترحمون ويظهرون الإيمان ويعلنون الرضا بقضاء الله.

الصبر والرضا

السيد رضوان الحسينى، فى «زقاق المدق»، أنموذج للمسلم الصابر عند الابتلاء بالموت: «رآه الناس يوما يشيع ابنا من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه». «١٠»

بالتلاوة القرآنية يبدى الرجل رضاه بقضاء الله، ويترحم على ابنه، وبالوجه المشرق يعلن عن توافقه وانسجامه مع المشيئة الإلهية دون تذمر أو احتجاج.

ويتلقى الشقيقان حسين وحسنين، فى «بداية ونهاية»، خبر الموت المفاجئ لأبيهما، فيلوذان بالقرآن الكريم، كل على طريقته.

كان حسين يبكى: «ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة». «٩»

ويتساءل حسنين: «هل الموت هو النهاية؟. ألا يبقى من أبى إلا التراب ولا شىء وراء هذا؟. معاذ الله. لن يكون هذا. إن كلام الله لا يكذب». «١٢»

حسين هو الأكثر إيمانا والأقل تفكيرا والأسرع استجابة لما يتطلبه الموت من التسليم والرضا، وحسنين هو طارح الأسئلة فى قلق وتوتر يكشفان عن شخصيته، ثم يستقر به الأمر أخيرا فى حضن الإيمان بالكتاب وأحكامه.

رحمة ونور

فى لحظة الموت نفسها، يبدو القرآن الكريم ضروريا للحى والميت معا.

ساعة احتضار رشوانة عزيز، فى «حديث الصباح والمساء»، وثبت ابنتها دنانير إلى الفراش: «وأسندتها إلى صدرها، وراحت تتلو ما تيسر لها من الآيات». «٩٩»

وفى الرواية نفسها، تحتضر زينب النجار تحت مظلة حانية من تلاوة راضية القليوبى ودموعها. «١٠٨»

فى الآيات المتلوة عند الموت رحمة لرشوانة وزينب، وفيها سلوى لدنانير وراضية.

بعد الدفن وسكنى القبور، تتحول الآيات المقروءة من الزائرين إلى رحمة ونور للموتى فى وحدتهم.

الموت والموتى من الموضوعات التى يتحدث فيها كامل رؤية لاظ، فى «السراب»، مع أمه فى طفولته: «وكنا نتحدث كثيرا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدة وحساب،

وكيف تنزل عليهم الآيات نورا، يذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم». «٢٠»

حوار يحمل المعانى نفسها نجده فى قصة «رحلة»، مجموعة «خمارة القط الأسود». يتناقش الأطفال أمام القبور، وينبرى رفاعة، أكثرهم إيمانا وورعا، لتفسير ما يحيط بالموت من غموض وظلام، وبكلماته هذه يحتل مرجعا لزملائه كثيرى الأسئلة:

«- والظلام؟

- يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين». «٢٠٠»

القرآن الكريم مزيل الظلمات فى القبور، والقرآن أيضا هو مخفف عذاب القبر:

«- والحساب؟

- يكون فى أول ليلة فقط.

- والمرزبة؟

- فظيعة.. ولكن القرآن!». «٢٠١»

القرآن هو الملاذ والحامى. بآياته يترحم الأحياء على موتاهم، ويتصبرون. وبنوره، تزول ظلمات القبر ويخفف العذاب.

تعليم القرآن

يتم تعلم القرآن الكريم وحفظه، منذ الطفولة، عبر وسيلتين: التعليم الدينى المتخصص ممثلا فى الكتاتيب، حيث القرآن هو الأساس، ومبادئ القراءة والكتابة والحساب هى الفروع، أما الوسيلة الثانية فهى التعليم المدرسى المدنى، الذى يجمع بين الدين والقرآن والعلوم المختلفة.

ثمة طريق آخر أقل انتشارا، هو التعليم المنزلى، الذى يتم عادة لظروف خاصة بالمتعلم، وفيه ينتقل المعلم إلى البيت، بدلا من انتقال الطالب إليه.

تعليم منزلى

قنديل محمد العنابى، الشهير بابن فطومة، فى «رحلة ابن فطومة»، عرضة للأذى من إخوته غير الأشقاء، أو هذا ما تتوهمه أمه، ويبلغ الخوف بها إلى الدرجة التى تمنعه فيها من الذهاب إلى الكتاب: «فعهدت بى إلى الشيخ مغاغة الجبيلى – وكان جارا لأسرتها – ليلقننى العلم فى دارى. وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصوف والرحلات». «٧»

الخوف على قنديل يدفع أمه إلى تعليمه فى البيت، والتأخر فى الالتحاق بالكتاب هو ما يدفع العالم الأزهرى سيد الراوى، فى «قلب الليل»، إلى تعليم حفيده جعفر منزليا، تمهيدا لالتحاقه بالأزهر: «لُقنت مبادئ دين جديد غير الدين الذى تلقيته على يد أمى، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح، أما هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية، حفظ سور وشرحها». «٣٩»

ويختلف الأمر قليلا بالنسبة لعاشور الناجى، فى ملحمة «الحرافيش»، وهو لقيط لا أم له ولا جد، فراعيه معلم القرآن الشيخ عفرة، يعلمه حيث يقيمان معا: «عند الأصيل يجلس عند قدمى الشيخ فيحفظه ما تيسر من القرآن ويلقنه آداب السلوك والحياة». «١٠»

وبعد سنوات طوال يتولى عاشور المهمة نفسها مع زوجه فلة: «إنه يلقى عناء فى تعليمها. ولو لا ثقتها فيه ما صدقت كلمة واحدة مما يقول. تحفظ سور الصلاة فى عناء». «٦٢»

لأسباب مختلفة كل الاختلاف، لا يتمكن قنديل وجعفر وعاشور وفلة من الذهاب إلى الكتاب، كالأغلبية العظمى من أقرانهم، ويكون البديل المتاح هو الاستعانة بمعلم خاص، أو يتحول ولى الأمر والزوج إلى معلم فى الوقت المتاح والممكن.

الأسلوب الأكثر انتشارا هو التعليم فى الكتاتيب والمدارس المدنية، والكتاب متاح لأبناء الطبقات الشعبية الفقيرة، الذين تحول ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية دون ذهابهم إلى المدارس، والكتاب متاح أيضا للأثرياء والأغنياء ممن يهيئون أبناءهم من خلاله لمستوى تعليمى أعلى، ومن المنطقى أن يختلف الهدف باختلاف الطبقة.

عالم الكتاتيب

طموح الفقراء لا يتجاوز أن يتعلم صغارهم الحد الأدنى، وهو طموح يعبر عنه خير تعبير المعلم بيومى، فى «حضرة المحترم»، عندما يقترح عليه

شيخ الكتاب أن يرسل ابنه عثمان إلى المدرسة الابتدائية، فيتساءل الرجل فى ذهول: «ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟!.» «١٣»

بيومى سواق كارو، وعثمان بالتبعية والميراث مهيأ للعمل نفسه، والهدف من الكتاب، عند الأب، لا يتجاوز بضع آيات تحفظ لإقامة الصلاة.

تختلف أهداف الأعيان وطموحاتهم، فالست عين، فى «عصر الحب»، تعتزم أن ترسل وحيدها عزت إلى الكتاب، وتقول له: «ستجد فى الكتاب التكريم ونور الله».

التكريم لأن شيخ الكتاب من رواد إحسانها الدائمين، ونور الله لأنه: «ينبثق أول ما ينبثق من الكتاب». «٢٨»

قد يجمع الكتاب الواحد بين أمثال عثمان وعزت، لكن المستقبل يختلف والطرق تتقاطع.

للتعليم فى الكتاب مزاياه، وحفظ القرآن الكريم مما يُمدح به الحافظون من خريجى الكتاتيب، ففى الحكاية العاشرة من «حكايات حارتنا»، يصف الراوى دولت بأنها فتاة طيبة: «تفك الخط وتحفظ بعض سور القرآن». «٢٣»

وفى الحكاية رقم «٣٤»، تتميز هنية بنت علوانة الدلالة، بأنها أكثر ثقافة وعلما ممن تحبه، وهو حمام صبى الخياط البلدى: «ثم أن هنية بنت «متعلمة»، مكثت فى الكتاب ثلاث سنوات، تفك الخط وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم». «٧٦»

وفتح الباب، فى ملحمة «الحرافيش»، متعلم فى الكتاب، وحافظ لما تيسر من القرآن. «٤٨٩»

ولأنه رقيق مثل فتاة، فإنه لا يروق لأخيه الفتوة سماحة، حتى تتطوع المربية بإظهار وإبراز فضائله: «يحفظ القرآن، يكتب ويعرف الحساب». «٤٩٣»

كيف يتفاعل الصغار مع الكتاب وعالمه الجديد عليهم، وهم الوافدون من البيوت والشوارع؟!، وأى انطباع يخرجون به، ويتكرس فى أعماقهم، بعد لقائهم الأول مع معهد العلم؟!.

عذاب وتهكم

ربما تصلح تجربة قاسم عمرو، فى «حديث الصباح والمساء»، لتجسيد الأنموذج الشائع لصدمة اللقاء الأول: «وظلت الدنيا لهوا ولعبا حتى حُمل قاسم ذات يوم إلى الكتاب ليبدأ حياة جديدة وليُحرم من رفقة أحمد ثلثى النهار. والكتاب يقع فى منحنى من منحنيات عمارة الكبابجى على بعد خطوات من البيت، ولكنه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنا، تتلقى فيه المبادئ الإلهية تحت تهديد المقرعة.. ولم تجد التوسلات ولا الدموع». «٧»

تقاليد صارمة، وسجن ومقرعة وتوسلات ودموع!. الصورة قاتمة كئيبة، لا يخفف من وقعها، إلا قليلا، انتقال الطفل المباغت من اللهو واللعب بلا حدود، إلى الحفظ والتعليم والالتزام والجدية.

أهى دار علم وتعليم، أم مكان عذاب وتعذيب؟!.

ولكى تكتمل الصورة، يمكننا أن نتوقف أمام المكانة الاجتماعية التى يحظى بها شيخ الكتاب، الذى يعلم القرآن الكريم ويحفظه، فى عالم نجيب محفوظ.

مكانته لا تختلف عما أشرنا إليه من قبل، فى سياق الحديث عن شخصية قارئ القرآن الكريم. وإذا كان عالم القراء يضم بعض المشاهير والنجوم، فإن شيوخ الكتاب لا نجوم فيهم. يفصل المجتمع بين «مهنة» التعليم و «مادة» العلم، وإذا كان القرآن الكريم مبجلا ومقدسا، فإن محفظ القرآن لا تبجيل له ولا قداسة فيه.

فى «بين القصرين»، لا تجد خديجة أحمد عبد الجواد حرجا فى التهكم على شيخ الكتاب، فى إطار سخريتها العامة من كل المحيطين بها: «كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين «شر ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم «وظيفته» مع قبح وجهه». «٢٩»

والشيخ العزيزى، فى «عصر الحب»، يتمثل فى ذهن الطفل عزت عبد الباقى كريها منفرا: «قزم مقوس الساقين أقعس الصدر، صغير القسمات كطفل، يتمايل فى مشيته من جنب إلى جنب متوكئا على عصا قصيرة طولها ذراع أو دون ذلك، كأنه لعبة مما تعرض فى الموالد، وهيهات أن ينسى أنه رآه فى يوم ممطر وقد حمله فاعل خير على كتفه ليعبر به الطريق». «٢٩»

والراوى فى قصة «المهد»، مجموعة «القرار الأخير»، يتحدث عن تجاربه الطفولية فى التقليد والمحاكاة: «وسيدنا شيخ الكتاب ومقرعته، ألف

المنديل حول رأسى كعمامة، أتربع على صندوق وتجلس الخادم على الأرض بين يدى، أحاكى صوته وألوح بالعصا، وألقى الدرس، وأسمع وأعاقب آخذا ثأرى من كل ما لحقنى فى يومى الثقيل». «١٣»

القبح الشكلى هو المشترك الأول بين الشيوخ الثلاثة، وغياب المكانة اللائقة بجلال القرآن هو المشترك الثانى. الكبار والصغار يعرضون به، ويسخرون منه، ويقلدون حركاته، ويبالغون فى تقديم الملامح الكاريكاتورية التى لا تقترب من القرآن الكريم؛ لكنها تصب سهاما حارقة على «وظيفة» المعلم المحفظ.

هل ينجح هؤلاء الشيوخ ويصلحون لتعليم القرآن الكريم؟!. قد ينجحون، لكنهم لا يقنعون. وقد يقومون بالتحفيظ الجبرى، دون إقناع تلاميذهم بجدوى العملية التعليمية كلها!.

تشابه وصراع

لا بديل لهم، قبل انتشار التعليم العصرى فى المدارس، ولذلك فهم يعلمون قدر استطاعتهم، ويقع العبء الأكبر فى مواصلة المشوار التعليمى على عاتق التلميذ وأسرته بالتبعية!.

الزعيم الوطنى أحمد عرابى، كما يقول فى شهادته «أمام العرش»، من خريجى الكتاب، ففيه حفظ القرآن صغيرا فى قريته بالشرقية». «١٦٥»

كثيرون هم، فى الواقع وفى أدب نجيب محفوظ، من يلتحقون بالكتاب ويتعلمون ويحفظون، قبل أن تتفرق بهم السبل.

لا تناقض ولا تعارض بين الكتاب والمدرسة، فالتجهيز للمدرسة يبدأ بالكتاب، وخديجة، فى «قصر الشوق»، تدفع بابنها عبد المنعم إلى الكتاب وهو دون الخامسة من عمره. «٤٦»

ثم يواصل عبد المنعم رحلة التعليم فى المدارس الحكومية، وصولا إلى الجامعة والتخرج فيها.

ولا تختلف صورة التعليم القرآنى فى المدارس كثيرا عن أسلوب التعليم فى الكتاتيب.

التحق كامل رؤبة لاظ، فى «السراب»، بمدرسة الروضة الأولية الأهلية، وهو يعترف بأنه لم يتعلم شيئا على الإطلاق فى السنة الأولى: «ولم أحفظ فى بحر عام دراسى إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التى كنت أسمع أمى ترددها فى صلاتها». «٣١»

وقد تستبدل المعلمة العصرية بالشيخ القبيح، لكن الجوهر لا يتغير، ففى قصة «جنة الأطفال»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، تسأل الطفلة أباها: «ومن هو الله يا بابا؟»، فيسأل الأب بدوره: «ماذا قالت أبلة فى المدرسة؟»، وترد الطفلة على الفور: «تقرأ السورة وتعلمنا الصلاة ولكنى لا أعرف». «٨٦»

أسئلة كثيرة عسيرة تطرحها الطفلة المتطلعة إلى المعرفة، وهى أسئلة تقطع بأنها لا تتعلم شيئا يتجاوز قراءة السورة «المقررة» وتعلم الصلاة. أى اختلاف جوهرى إذن بين الكتاب التقليدى بشيخه ومقرعته وإرهابه، وبين المدرسة العصرية بمناهجها وأساليبها التربوية؟!.

وفى رحلة العمر التى يستعرضها الراوى فى قصة «نصف يوم»، مجموعة «الفجر الكاذب»، يتوقف أمام المدرسة: «وشاهدنا الكرة الأرضية وهى تدور عارضة القارات والبلدان. وطرقنا باب العلم بادئين بالأرقام. وتليت علينا قصة خالق الأكوان بدنياه وآخرته ومثال من كلامه». «٣٤»

الدين، القرآن الكريم فى القلب منه، مادة تدرس كغيرها من المواد، ولا تتسع الأعمال السابقة لمزيد من التوضيح للموقع الذى يمثله القرآن: سور قصيرة يحفظها كامل، وسور مماثلة تقرأها المدرسة لتلاميذها، و«مثال» من كلام الله يُعلم مع المواد الأخرى.

تجربة كمال عبد الجواد

الكشف الحقيقى عن دور القرآن الكريم فى المدارس، نجده فى «بين القصرين»، من خلال الحديث عن كمال عبد الجواد وعلاقته الوطيدة مع القرآن الكريم وأمه معا.

درس الديانة حبيب إلى قلب كمال، ومع بداية ظهوره فى الرواية، تتجلى صلته الوثيقة مع الشيخ الذى كان يعطف عليه ويعجب به: «لإقباله على الاستماع لدروسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظا جيدا». «٤٦»

يعى كمال أنه لا يتلقى الدروس الدينية لنفسه فحسب: «وأن عليه أن يعيد ما وعى منها فى البيت على أمه — كما اعتاد أن يفعل منذ كان فى الكتاب — فيلقى إليها بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذى كان شيخا أزهريا، ويتذاكران معارفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التى لم يسبق لها حفظها». «٤٧»

يتعلم كمال فى المدرسة، ثم يتحول إلى مشروع معلم فى البيت، أما صورة المدرس الشيخ فتختلف عن النمط الشائع من حيث أسلوب التعامل، لكنها لا تختلف كثيرا فى جوهر العلم الذى يقوم بتلقينه: «فلم تكن عقلية مدرسى الديانة – كما تتكشف فى تبسطه فى الحديث أحيانا – لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا». «٦٢»

القرآن الكريم هو الراية التى يقف تحتها كمال وأستاذه وأمه، لكن تعليمه يتم مختلطا بالخرافات والأساطير والتفاسير التى تكشف عن طبيعة الثقافة الدينية الشعبية السائدة.

مع نهاية كل يوم، ينفرد الغلام بأمه: «ويتناول كتاب الديانة منتقلا إلى جانبها وهو يقول بصوت ينم عن الإغراء:

– استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا..

وتستوى المرأة فى جلستها وهى تقول باحترام وإجلال:

– كلام ربنا عظيم كله». «٦٣»

متعة كاملة فى حفظ القرآن، والمناقشات الحامية، وانفراد الطفل بأمه دون شريك!.

مرحلة ذهبية فى حياة كمال، لكنها لا يمكن أن تدوم وتستمر. بازدياد معارف كمال، الدينية والدنيوية، تتضاءل علاقته القرآنية مع أمه، وتقتصر الصلة بينهما على الأمومة والبنوة!.

ومحاولة بعث العلاقة فى صورة جديدة، كما تطمح خديجة مع ابنها عبد المنعم، فى «قصر الشوق»، لا تبشر بنجاح مماثل.

تزعم خديجة أنها تذاكر عبد المنعم دروسه بنفسها!، ويرد ياسين مستنكرا:

«- أنت تذاكرينه؟!

- لم لا؟!، كما كانت نينة تذاكر كمال، أجالسه كل مساء فيسمعنى ما يحفظونه فى الكتاب». «٤٧»

لا يتحقق طموح خديجة ويجهض مبكرا، فالزمن فى سريانه الجبار لا يبقى على أمثال هذه العلاقات.

فى الرواية نفسها، تقول أمينة لابنها كمال الشاب، وفى قولها حياء ينم عن إحساسها بتغير موقعها فى حياته: «مضى زمن لنا لا نجد وقتا يتسع لحديثنا». «١٨٠»

كان القرآن محور حديثهما الذى لا ينتهى، ثم تغيرت ثقافة الطفل القديم وتبدلت رؤيته، وانقضى ذلك العهد!

القرآن حاميا

ما أكثر الأخطار والمخاوف التى تهدد حياة الإنسان وتعكر صفوها، وما أعظم الدور الذى يقوم به القرآن الكريم فى إعادة التوازن والتوافق، وتحقيق الانسجام والتناغم.

فى حياة البشر، شياطين وأمراض ومخاوف شتى، وفى بركة القرآن الكريم ما يمنح الحماية والأمان، لمن يأخذ بالأسباب، وتصفو نيته، ويصح عزمه على المواجهة، مسلحا بالإيمان والإرادة.

قد يختلط تعامل البسطاء مع القرآن، كسلاح للحماية والأمان، بالكثير من الخرافات والأساطير، لكن الفكرة الأساس تكمن فى الدافع وصدق النية: أليس أن الإيمان وحده هو ما يحرك ويدفع إلى الاستغاثة بالقرآن والاحتماء به؟!.

عفاريت وشياطين

العلاقة معقدة متشابكة، فى الواقع المعيشى وفى عالم نجيب محفوظ معا، بين القرآن الكريم والعفاريت. وجود العفاريت والجن والشياطين حقيقة قرآنية لا يتطرق إليها الشك، ولا يجادل فيها مسلم، لكن «أسلوب» التعامل مع هذه الكائنات هو الذى يتحقق فيه الاختلاط والتداخل بين الحقيقة والوهم.

القرآن الكريم أقوى سلاح يملكه المؤمن صادق الإيمان، وبه يتفوق الإنسان على كل ما عداه من مخلوقات. وفى مسرحية الفصل الواحد: «الشيطان

يعظ»، فى المجموعة التى تحمل الاسم نفسه، يرغب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فى الحصول على قمقم من قماقم العفاريت، وهى رغبة تحظى بتعليق دال من الشيخ التقى عبد الصمد بن عبد القدوس الصمودى: «رغبة مولانا على الرأس والعين، ولكن الله أمرنا بالشورى، ومن يمد سلطانه بقوة القرآن فليس به حاجة إلى قوة العفاريت». «٣٣٦»

ويقدم «المجنون»، فى «ليالى ألف ليلة»، درسا عمليا بليغا فى قهر الشياطين المتنكرين فى صورة بشرية. «أنيس الجليس» شيطانة تسبى العقول، وتذل الرجال، وتأسر بحبائلها كبار رجال السلطنة، لكن سحرها يتلاشى أمام الرجل الإلهى ذى السر والإيمان: «تحركت شفتاه بتلاوة خفية. لم تسعفها المقاومة اليائسة، وزحف عليها ما يشبه النوم الثقيل. تراخت أعصابها. تركت تيار التغيير يتدفق. مضت قسمات وجهها تذوب وتتداح فصارت عجينة متورمة. تقوضت القامة الفارهة وطارت منها الملاحة والرشاقة بسرعة عجيبة لم يبق منها إلا نقاط منفصلة. استحالت دخانا ثم تلاشت غير تاركة أى أثر». «١٧١»

النصر الساحق الماحق، بكلمات الله المباركة، الحارقة للشر المزيلة للشياطين، ذلك أن قوة القرآن الكريم تمحق كل قوة أخرى. بالتلاوة المباركة يتحلل الشيطان، ويزول تأثيره، وتتعرى حقيقته، وتفشل حيله، ولا يبقى له من أثر أو مفعول.

الاستعانة بالعفاريت لا تشغل عوام وبسطاء المسلمين، كما أن الانتصار الحاسم يفوق طاقتهم. ما يشغلهم ويعنيهم هو الخوف من ناحية، والرغبة

فى اتقاء الأذى والشر من ناحية أخرى. ولمواجهة الخوف، يستعينون بالقرآن.

بعض السور القرآنية، مثل «الفاتحة» و «الصمدية»، هى الأعظم تأثيرا والأكثر انتشارا فى مواجهة العفاريت، لكن كتاب الله كله سلاح فعال فى المقاومة.

أمينة، فى مطلع حياتها الزوجية مع أحمد عبد الجواد، فى «بين القصرين»، شابة صغيرة تعانى الوحدة فى انتظار عودة زوجها من سهرته الليلية، ولا سبيل أمامها لمواجهة المخاوف، فى البيت الكبير الملىء بالعفاريت والشياطين والجن، إلا التسلح بكتاب الله والاحتماء به: «ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين، ثم تنتهى إلى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة، حتى يغلبها النوم». «٧»

تستعين أمينة بكلمات الله لتدخل إلى عالم النوم فى أمان وثقة، وبقوة القرآن الكريم، الذى تحفظه أمه، يتسلح حمدون عجرمة، فى «عصر الحب»، غير خائف من العفاريت، فإذ يقول له صديقه الجديد، وزميل الدراسة فى الكتاب، عزت عبد الباقى:

«– وقد يطلع لنا عفريت من القبو فمن الأفضل أن نكون معا..

يرد فى ثقة:

- لا أقترب من القبو ليلا.. وأمى تحفظ القرآن». «٣٢»

السلاح الدفاعى السلبى هو الابتعاد عن القبو المخيف الذى تسكنه العفاريت، أما السلاح الهجومى الإيجابى فتمتلكه الأم حافظة القرآن الكريم، والكتاب المقدس هو مانح البركة والحماية الحقيقية.

كل المخاوف

تزداد مخاوف الأطفال قبل النوم، ويحتاجون دائما إلى الحماية والأمان القرآنى. ليس الخوف من العفاريت وحدها بطبيعة الحال، لكن القرآن يعالج كل المخاوف.

فى «السراب» لا ينام الطفل كامل رؤبة لاظ قبل أن تتلو أمه من القرآن ما يصونه ويحميه: «وضعت راحتها على رأسى وقرأت سورا قصارا من القرآن «كالعادة»، حتى رفق النوم بجفنى». «٥٠»

القراءة القرآنية ليست استثنائية، لكنها «عادة» يومية تمارسها الأم وينتظرها الابن.

والطفل كمال عبد الجواد، فى «بين القصرين»، يكرر التجربة نفسها مع أمه، بعد أن حرم بقرار أبوى صارم من مشاركتها الفراش: «توسل إليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة». «٦٥»

وتستجيب أمينة، كالعادة أيضا: «فتتلو الآيات على رأسه حتى غافله الكرى». «٦٦»

ليست أمينة في حاجة إلى أن ينبهها كمال إلى مخاوفه المزعومة، المصنوعة للتشبث بها واستبقائها إلى جواره، فهى مهيأة منذ البدء للاستعانة بالسلاح الرئيس الذى تملكه ولا تتخلى عنه؛ القرآن. قد لا يكون السلاح الوحيد، لكنه الأول والأهم.

بعد تجربة كمال - الطفل مع الجنود الإنجليز فى معسكرهم، وهى مغامرة مرحة لكمال، وقصة مفزعة لأمه المسكونة بالخوف الدائم، تبدأ أمينة فى التفكير «العملى» لمقاومة ما أصاب ابنها: «لم تكن ترى فى الفزع مجرد شعور عابر، كلا.. إنه شعور شاذ تكتنفه هالة غامضة تأوى إليها العفاريت كما تأوى الخفافيش إلى الظلام، فإذا أحاط بشخص - خصوصا الصغار - مسه بضر سىء العاقبة، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا». «٣٨١»

القرآن الكريم فى طليعة الأسلحة، ثم تأتى البخور والأحجبة كأسلحة معاونة. الفزع يطول الجميع، وله خصوصية مع الصغار، الأشد تأثرا والأكثر ذعرا؛ لأنهم صغار.

يعرف كمال القوانين التى تحكم أمه، وفى موقف مفزع آخر، يتخيله الطفل فى أحلام يقظة، مع الإنجليز أيضا، يتوقع رد الفعل على ضوء تجاربه ومعارفه: «ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق أنه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى ترتجف». «٣٤٧»

القرآن الكريم هو خط الدفاع الأول الحصين ضد العفاريت، والإنجليز، وكل ما يثير الفزع والخوف.

اكتشاف المقبرة الفرعونية فى قصة «يقظة المومياء»، مجموعة «همس الجنون»، تصاحبه مشاعر الرهبة، والشيخ جاد الله، المكتشف، يتلو القرآن ويرد التعاويذ، قبل نزوله إليها. «٩٣»

وفى الغارة الجوية العنيفة التى تقدمها قصة «الجامع فى الدرب»، مجموعة «دنيا الله»، يحتمى الإمام ومقيم الشعائر بركن من أركان المسجد، وتنطلق أفواههم بالتلاوة». «٦٣»

الصغار والكبار، الرجال والنساء، البسطاء ورجال الدين؛ الجميع يحتمون بالقرآن، وينشدون بركته، ويطلبون معونته لمقاومة العفاريت والإنجليز والمجهول المخيف والغارات الجوية المدمرة.

المرض مفزع أيضا، وقد يقود إلى الموت، ولذلك فإنه يستدعى تلاوة القرآن الكريم تقربا إلى الله، والتماسا للشفاء.

المرض والإرادة

أحمد بن طولون، فى «أمام العرش»، حاكم محبوب من رعيته باختلاف دياناتهم، ويدلل كاتب سره، موسى، على حب الشعب له بقوله: «لذلك فعندما اشتد عليه المرض خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم، المسلمون بقرآنهم والمسيحيون بإنجيلهم واليهود بتوراتهم». «١٤٥»

وفى «عصر الحب»، يتخيل عزت عبد الباقى، فى مرضه، أمه عين التى لن تغادر فراشه: «سينهال عليه سيل فياض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة». «١٤٨»

وفى مرض الطفل أحمد محمد إبراهيم، الذى أفضى به إلى الموت فى «حديث الصباح والمساء»، لا تكف أمه عن تلاوة الآيات. «٨»

ليس مستغربا إذن أن يكون القرآن مصاحبا للإنسان دائما، وأن يكون مما يُهدى فى المناسبات السعيدة.

القتيل المجهول فى قصة «حادثة»، مجموعة «دنيا الله»، يحمل مجلدا صغيرا من السور القرآنية. «١٨٢»

وأول هدية يتلقاها المولود عزيز قرة الناجى، فى «الحرافيش»، من عمه وخالته الكارهين له ولأبويه، مصحف مذهب الغلاف. «٢٨٢»

بالمصحف يظهران الحب والتمنيات الطيبة، أما النية وما يعتمل فى القلب من مشاعر، فشىء آخر.

مصحف مذهب الغلاف يهدى لمولود، ومرآة مثبتة فى إطار عاجى موشى بالآيات فى «عصر الحب». «٢٢»

وفى «ليالى ألف ليلة»، يظهر قائم خشبى مزخرف بالأصداف، عليه مصحف كبير. «٣٣»

وزكى كناشة، فى «صباح الورد»، يشيد لنفسه قبرا من الرخام النفيس المنقوش بآيات الرحمن. «٩٥»

إنه الحضور الدائم، والتوهج الذى لا يعرف الخمود، والتغلغل فى كل مفردات الحياة اليومية، والبحث الدائب عن البركة المؤكدة فى الهدايا وقطع الأثاث وشواهد القبور.

لكن الاستعانة بالقرآن الكريم لا تمنح الأمن وتضفى الحماية، دون إرادة الإنسان نفسه ورغبته الجادة فى التصالح مع الحياة، وكما فى قصة «المهد» مجموعة «القرار الأخير»: «الله رحمن رحيم، ينشر عنايته الإلهية فتحيط بكل شىء، وقد يُسر لنا مفتاح الأمن والأمان، بالآية نتلوها، بالصلاة نقيمها، بالصوم نتقرب به إليه، فتصفو الحياة وتحلو». «٦»

الإنسان وحده هو المسئول عن حياته، وبالإرادة القوية يمكن أن تصفو الحياة وتحلو. لا يغنى القرآن الكريم عن الأخذ بالأسباب، فهو يبارك ويطهر ويساعد من يسعون ويجدون ويجتهدون فى العمل.

فى «عصر الحب» تدهش الست عين من تورط ابنها عزت فى الخطيئة الجنسية مع ابنة تابعتها، وتتساءل عما ينقص البيت: «يتلى فيه القرآن، يعبقه البخور، ترعاه الحسنات والنوايا الطيبة، فكيف يندس الشيطان فى أركانه؟». «٦٤»

ما جدوى أن يتلى القرآن ويعبق البخور وتمنح الحسنات، ولا يكبح عزت جماح شهواته ويروض غرائزه؟!. لم ينتصر الشيطان على القرآن الكريم، لكن عزت هو المهزوم المسكون بالشيطان، والقرآن لا يسعف وينقذ وينجد إلا من يسعى مخلصا إلى الخلاص، دون استسلام للإغواء والنزوات.

ينصرف القرآن عمن ينصرف عنه، وسعيد مهران فى «اللص والكلاب»، ينبذ القرآن ويدير ظهره لدعوة الشيخ على الجنيدى: «خذ مصحفا واقرأ». «٣٠»

يكرر الشيخ دعوته، ويوالى سعيد رفضه باحثا عن بديل آخر إلى الخلاص المنشود. لقد اختار واعيا، وعليه أن يتحمل تبعة الحرية والمسئولية.

القرآن والسياسة

فى قصة «الجامع فى الدرب»، مجموعة «دنيا الله»، يجتمع المراقب العام للشئون الدينية، وهو شخصية خطيرة من رجال السراى، مع أئمة المساجد، ويطالبهم: «بهتك أستار الدجالين ومثيرى الشغب كى يستقر الأمر لصاحب الأمر». «٥٤»

لا تصرح القصة بشكل مباشر، لكن: «من يكون الدجالون ومثيرو الشغب إلا أنصار الوفد، وهم الأغلبية الشعبية؟!، ومن يكون صاحب الأمر إلا الملك؟!. المعركة سياسية طرفاها الشعب والسراى، والأئمة مطالبون، بحكم وظائفهم، أن يشاركوا فى الصراع السياسى من خلال الدين.

الموقف القرآنى

يجتمع ثلاثة من الأئمة: الشيخ عبد ربه محور القصة، وصديقاه خالد ومبارك. يقول خالد متذمرا:

«- لم تخلق دور العبارة للمهاترات السياسية وتأييد الطغاة.

ويقول مبارك:

- سنقتل مبدأ إسلاميا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

أما الشيخ عبد ربه، فيقول معارضا لرفض صديقيه:

- بل سنحيى مبدأ إسلاميا هو الدعوة إلى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر». «٥٦»

الشيخ خالد ينزه الدين عن الخوض به فى المهاترات السياسية، أما مبارك وعبد ربه فيستندان إلى القرآن الكريم، معبرين بالاستناد عليه عن موقفين متعارضين متنافرين: الأول يدين الديكتاتورية، والثانى يؤيد ولاة الأمور، وكلاهما يعتمد على القرآن الكريم، والمصالح الشخصية والسياسية المتباينة لا تنفى أنهما يستقيان من النصوص القرآنية ما يؤيد ويسعف.

يعبر الشيخ خالد عن الموقف الأكثر اتساقا مع قداسة الدين وسمو القرآن، فثمة خطورة حقيقية فى الدفع بالقرآن إلى معترك الحياة السياسية، وإقحامه، وهو المطلق المقدس، فى مجال نسبى يخلو من القداسة.

جهاد أم هلاك؟

القرآن الكريم «حمال أوجه»، كما هو منسوب إلى الإمام على بن أبى طالب، وباختلاف الدوافع والأهداف، يتم الانتقاء والاختيار الذى «يستغل» و «يستثمر» القرآن للتبرير والدفاع، دون اهتمام جاد بالإدراك الموضوعى للحقيقة القرآنية.

هل يدعونا القرآن الكريم إلى الاشتراك فى ثورة ١٩١٩، وهى جهاد وطنى نبيل جليل، أم ينهانا عن الخوض فى غمارها والتعرض للأذى والضرر؟!.

فى «بين القصرين»، يقول أحمد عبد الجواد لابنه فهمى غاضبا:

«- إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك، وقد أمرنا

سبحانه بألا نعرض أنفسنا للتهلكة..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم هذا المعنى، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن إلا السور الصغيرة التى يتلوها فى صلواته، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه.

ولكنه ما يدرى إلا وفهمى يقول بلهجته المهذبة:

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا..

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ما داراه من استمساك برأيه!... لعله احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا إلى أن أباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته، فتناسى جرأته إلى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء». «٤٠١»

فى احتماء فهمى بقداسة القرآن من غضب أبيه، ما يؤكد أن القرآن هو الحامى الأكبر من المخاوف، لكن الذى يعنينا هنا هو الاختلاف الجذرى بالغ الوضوح بين الأب وابنه، على الرغم من استنادهما معا إلى القرآن الكريم.

السؤال مطروح بلا إجابة: هل يحبذ القرآن المشاركة الإيجابية الفعالة فى أحداث الثورة الشعبية، أم ينهى عنها ويأمر بتجنبها؟!. الأمر القرآنى صريح لا يقبل الجدل، ففى الآية رقم «١٩٥» فى سورة «البقرة»، يقول تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

هذه هى الآية الكريمة التى أراد أحمد عبد الجواد أن يستعين بها، وحال دون ذلك أنه لا يحفظها. ويبقى السؤال قائما: هل «التهلكة» التى يقصدها القرآن الكريم، وينهى المؤمنين عن إلقاء أيديهم إليها، هى التهلكة التى يعنيها أحمد عبد الجواد ويحذر ابنه فهمى منها؟!.

لا يختلف المسلمون حول حقيقة النص القرآنى، الذى لا يطوله التبديل والتحوير، لكنهم يختلفون كثيرا حول تفسيره. مرد الاختلاف إلى تباين الثقافة الدينية من ناحية، وتناقض المصالح والأهداف الدنيوية من ناحية أخرى. أحمد عبد الجواد وابنه فهمى يختلفان حول الموقف من المشاركة فى ثورة ١٩١٩، ويقدم كل منهما تفسيرا لآيات قرآنية تعينه وتسعفه.

ألا يحث الله المؤمنين على الجهاد؟!. أليس فى القرآن الكثير من الآيات التى تدعو إلى الجهاد، وتبشر بأعظم الجزاء للمجاهدين والشهداء؟!.

لقد بوغت الأب بمنطق ابنه القرآنى، فعجز عن الرد، وانشغل بالبحث عن حجة «من القرآن نفسه»، وفتح الله عليه بقوله:

«– ذاك كان جهادا فى سبيل الله».

وهو قول لا يعجز فهمى، الذى يرد ببساطة:

«- جهادنا فى سبيل الله كذلك، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله».

«٤٠١»

الخوف الأبوى المشروع، يقف وراء استشهاد أحمد عبد الجواد بالقرآن، والوطنية المشروعة تقف وراء تشبث فهمى بآيات قرآنية مغايرة. كلاهما يجد فى النص القرآنى ما يعبر عن رؤيته، ويتوافق مع مواقفه، ويدافع عن رأيه. الحوار، فى جوهره، تطبيق عملى عفوى لمقولة: «إن القرآن حمال أوجه».

المصلحة الشخصية تدفع الشيخ عبد ربه وأحمد عبد الجواد إلى التوقف عند الآيات القرآنية التى تحض على طاعة أولى الأمر وتجنب التهلكة، والمصلحة الوطنية تبرر استشهاد الشيخ خالد وفهمى بالآيات القرآنية التى تعلى من شأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله.

الثابت والمتغير

القرآن الكريم حقيقة خالدة، والبشر هم المتغيرون الزائلون. القرآن راسخ، والسياسة هشة، ومن هنا خطورة الزج بالنص المقدس فى ساحة المهاترات السياسية.

معارضو السلطان شهريار من الشيعة والخوارج، فى «ليالى ألف ليلة»، يحررون «الصحائف السرية» التى تطفح بتجريم السلطان والولاة، وتطالب بالاحتكام إلى القرآن والسنة. «٤٧»

وبعد هزيمة ١٩٦٧، ترتفع الأصوات وتتداخل، فى «الباقى من الزمن ساعة»، ومن هذه الأصوات اتجاه يعلى من شأن الدين، ويطالب بالاحتكام إلى القرآن الكريم: «الدين.. الدين.. الدين، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن». «٩٦»

كيف يكون الاحتكام إلى القرآن والسنة، ومن يجزم بأنهما يؤيدان شهريار أم خصومه؟، وكيف تكون الحرب بالقرآن؟.

شعارات سياسية فضفاضة بلا تحديد صارم، وهو ما يصل إلى ذروته عند جماعة الإخوان المسلمين، الذين يمثلون تيار الإسلام السياسى المنظم والأكثر انتشارا ونفوذا فى العصر الحديث.

عبد الوهاب إسماعيل، فى «المرايا»، قريب الشبه بالمفكر الإسلامى والزعيم الإخوانى المعروف سيد قطب، يقول للراوى بكل ثقة، كاشفا عن يقين لا يتزعزع: « يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة». «٢٦٢»

كيف؟!. بعودة المرأة إلى البيت، وبنبذ «الخبائث» الشائعة مثل الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوربية المستوردة والعلم!.

من حقه أن يدلى بآرائه ويدافع عنها. لكن الخطورة أن تنسب آراؤه هذه إلى القرآن الكريم. كيف تتحول اجتهادات البشر إلى قواعد قرآنية، وهى محض اجتهادات تستدعى وتستحق الخلاف والاختلاف؟!.

ما يقوله عبد الوهاب إسماعيل، فى إيجاز دال، نجده بمزيد من التفاصيل فى «السكرية»، حيث يتحول القرآن الكريم، عند جماعة الإخوان المسلمين، إلى راية وشعار وأسلوب حكم وحياة.

يقول داعية الإخوان الشيخ على المنوفى، لتلاميذه وأتباعه: «لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه، فحقت الذلة علينا، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن». «٩٩»

كيف تكون العودة إلى الكتاب؟، وكيف يتحول القرآن الكريم إلى سلاح فعال لنجدة المسلمين وعلاج أمراضهم؟!. يتحدث الشيخ كثيرا ويسهب فى الشرح، ويؤكد مقولة الاعتماد على القرآن وحده، لكنه لا «يترجم» الشعار العام الفضفاض إلى برنامج واضح محدد الملامح، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

الإسلام عنده: «عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف». «٣٥١»

لن يختلف أحد حول حقيقة أن الإسلام عقيدة وعبادة ودين وروحانية، لكن الاختلاف مطروح بالضرورة، حول تفاصيل الأفكار المتعلقة بالوطن والجنسية والدولة والسيف، فضلا عن التباين المنطقى القائم فى فهم القرآن الكريم وتفسير آياته والانحياز إلى ما يعبر عن اجتهاد فى الفهم دون اجتهاد آخر.

يمزج الشيخ على المنوفى بين الدين والسياسة، ويدعو أنصاره من الشباب إلى انتظار نهاية الحرب العالمية الثانية: «وعندما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الإخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه»!.

وكلمات الإخوانى عبد المنعم ليست إلا امتدادا لكلمات أستاذه، فهو يخطب فى عاطفية مفرطة: «فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستورا للمسلمين أجمعين». «٣٥١»

ما التفاصيل؟!، وكيف يتدرع الإخوان المسلمون بالقرآن الكريم والسلاح؟!، وكيف يجعلون من القرآن دستورا يحكم العالم الإسلامى كله؟!. ألن يتم ذلك بمعرفة مجموعة من المسلمين، يفسرون الآيات القرآنية ويستنبطون منها جملة المبادئ والأحكام، فى شئون السياسة والاقتصاد وكافة مناحى الحياة الإنسانية؟. إذا كانت رؤيتهم هى الصائبة الملزمة، فكيف إذا اختلف معهم مسلمون آخرون فى تفسير وتأويل الآيات القرآنية؟!.

الاختلاف وارد بطبيعة الحال، ولا احد يملك الادعاء بحق التفتيش فى الضمائر، للكشف عن النوايا الكامنة، ولا أحد يقوى على الزعم باحتكار اليقين والانفراد بالحقيقة المطلقة.

ألا يرفض أحمد عبد الجواد مشاركة ابنه فهمى فى ثورة ١٩١٩، ويصر الابن على المشاركة، وكلاهما يعزز رأيه بالقرآن؟!.

ألا يميل الشيخ عبد ربه إلى تأييد الطغاة الذين يرفضهم الشيخ خالد، وكلاهما يبرر موقفه مستندا إلى القرآن؟!.

ألا يدعو الخوارج إلى الاحتكام للقرآن فى صراعهم مع السلطان شهريار، وهم الذين اختلفوا مع الإمام على بن أبى طالب من قبل، وطالبوا بالعودة إلى القرآن، فكانت دعوتهم هذه كلمة الحق التى يراد بها الباطل؟!.

القرآن الكريم ملك للمسلمين جميعا، والمواقف السياسية هى التى تحدد ما يتم اختياره وهجره من القرآن. لن يعجز كل صاحب مصلحة عن التفتيش فى القرآن عن آيات تؤيده وتبرر سلوكه وتدحض خصومه وأعداءه. أليس الأجدى إذن أن يتم تنزيه القرآن عن المهاترات السياسية؟!.

فى «رحلة ابن فطومة»، يتساءل الرحالة المسلم قنديل محمد العنابى، فى حسرة صادقة، مقارنا بين نمطين من الانحراف المرذول. أيهما أسوأ وأفدح وأشد خطورة: «من يدعى الإلوهية عن جهل، أم من يطوع القرآن لخدمة أغراضه الشخصية؟». «٧٠»

الاختيار ليس قائما بين الأمرين المنكرين، فادعاء الإلوهية عن جهل كارثة بلا دواء، وتطويع القرآن الكريم وتسخيره مصيبة تلحق الأذى والضرر بجميع المسلمين. كلا الفعلين فى السوء سواء!.

القرآن والإعلام

ثمة علاقة وثيقة بين القرآن الكريم والإعلام المسموع والمرئى، الإذاعة والتليفزيون.

مع بداية انطلاق الإرسال الإذاعى فى مصر، كان منطقيا أن يحتل القرآن مكانة بارزة فى البث، وهو ما يؤثر كثيرا على المستمعين، ويحظى بنسبة استماع عالية.

مؤثر ثقافى

لعل السكير المدمن رؤية لاظ، فى «السراب»، بحكم طبيعة شخصيته وسلوكه غير الدينى، هو آخر من يقبل التأثر بالقرآن الكريم، وأول من يثبت – إذا تأثر – خطورة الدور الذى تلعبه الإذاعة فى نشر الوعى الدينى والثقافة القرآنية. وفى حوار له مع ابنه كامل، يدافع عن نفسه وجملة ممارساته قائلا: «وهم يقولون عادة إنى مخطئ، وأنا أقول إنهم لمخطئون، فالله يفصل بيننا يوم القيامة». «١٤٢»

من أين له هذا الاقتباس القرآنى البليغ، وهو الغارق ليلا ونهارا فى الخمر؟!. يتولى مهمة الشرح والتوضيح: «لا تدهش إذا سمعتنى أقتبس من القرآن! فإنما الفضل فى ذلك إلى الراديو». «١٤٣»

الفضل مردود إلى الراديو، الذى يذيع التلاوة القرآنية والبرامج الدينية، ولا يستطيع رؤية أن ينجو من التأثير، اللغوى على الأقل!.

لا تقتصر برامج الراديو على القرآن الكريم وحده بطبيعة الحال، ذلك أن أذواق الناس تفرض التنوع، بقدر ما أن حريتهم تحتم حق الاختيار.

فى «السكرية»، يدخل الراديو إلى منزل أحمد عبد الجواد، وتنطلق منه الأغانى التى لا تحبها أمينة: «ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغانى إلا فى النادر. إن فضيلة الراديو الأولى فى نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن والأخبار». «٩»

القرآن للدين، والأخبار للدنيا، أما الأغانى فتقع خارج دائرة الاستماع!. الميزة الأولى فى الراديو تتمثل فى إذاعته للقرآن، وعندما يتقدم الإنسان فى العمر، وتتراجع قدرته على الحركة، ويضمحل نشاطه، فإن الراديو والتليفزيون هما السلوى، والقرآن والأخبار أفضل ما يعين على قضاء الوقت وقهر الوحدة.

محتشمى زايد، فى «يوم قتل الزعيم»، هو أكثر شخوص نجيب محفوظ استماعا للقرآن، فى الراديو والتليفزيون.

مع بداية ظهور محتشمى فى الرواية، يتم التعرف على برنامجه اليومى: «... وأستمع إلى قرآن الصباح فى الراديو». «٦»

محتشمى طامح إلى الولاية والمعجزات، بقدر عشقه للدنيا ومباهجها، ولذلك فهو لا يقنع بالاستماع إلى القرآن الكريم وحده: «أمضى وحدتى مستمعا للقرآن والأغانى والأخبار فى رحاب الراديو أو التليفزيون». «٨»

إذا كانت أمينة مولعة بالقرآن والأخبار وحدهما، فإن محتشمى يضيف إليهما الأغانى، ويجمع بين الراديو والتليفزيون. وهو إذ يفعل ذلك، يصل إلى صياغة موجزة تنم عن إدراكه لخطورة الدور الذى يلعبه الجهازان فى حياة أمثاله: «القرآن والأغانى. طوبى لكم يا من اخترعتم الراديو والتليفزيون». «٢٢»

طوبى لهم، فلولا ما اخترعوه لضاقت الدنيا وتجهمت، أكثر مما هى ضيقة ومتجهمة!.

مؤشر سياسى

تتنوع المواد الإذاعية، ولخطورة القرآن الكريم وجلال تأثيره وعظيم شعبيته، فإنه ينفرد بإذاعة خاصة، تمثل جزءا من البرنامج اليومى للسيد طيب. المهدى فى قصة «الرجل القوى»، مجموعة «القرار الأخير»: «ولم يبق له إلا السمر مع زوجته ومؤانسة التليفزيون وقراءة الصحف وسماع القرآن فى إذاعته الخاصة». «١٣٧»

وفضلا عن الدور الذى يقوم به القرآن الكريم فى الإذاعة والتليفزيون على المستوى الفردى، فإن دورا آخر للقرآن يتجسد من خلال الجهازين الخطيرين، كمؤشر سياسى رسمى فى المناسبات المتعلقة بموت القادة والزعماء.

بعض تفاصيل هذا الدور نجدها فى «الباقى من الزمن ساعة»، عند الموت المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر: «فذات مساء تغير وجه الإرسال

التليفزيونى فاقتصر على إذاعة القرآن الكريم.

ولفت الحيرة الناس من كل جانب. قال البعض:

- هذا لا يكون إلا لموت عظيم فى الدولة.

- أو موت أحد ضيوفنا العرب!

- غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قتل». «١٢٥»

لا تقترب الأذهان من مجرد التفكير فى موت عبد الناصر، لكن ما يلفت النظر هو الاتفاق على وجود «حالة موت» مهمة، تستحق أن يتغير معها وجه الإرسال، فيقتصر البث التليفزيونى على القرآن الكريم وحده.

الموت «الرسمى» لكبار الشخصيات، إن صح التعبير، يتم التمهيد له من خلال إذاعة القرآن فى الراديو والتليفزيون، وهذا ما يحدث عند موت عبد الناصر، ويتكرر مع اغتيال السادات.

حادث الاغتيال، كما تقدمها رواية «يوم قتل الزعيم»، تعقبها إذاعة الأغانى والأناشيد الوطنية، ويتلهف الجميع على معرفة الحقيقة، ويتساءل أحدهم: «هل نسمع القرآن بعد الأناشيد؟». «٨١»

إنه لا يذكر الموت بشكل صريح مباشر، لكن إذاعة القرآن تعنى الموت بالضرورة!. ربما كان يسخر أو يتفكه أو يتمنى، لكن التوقع يصح: «وتحملنا الوقت على ثقله حتى صمت النكتة وبدأت التلاوة». «٨١»

ويتأكد بذلك خبر اغتيال السادات، قبل الإعلان عنه!.

القسم بالقرآن

كيف يبرهن المرء على صدقه بالقسم؟!. وهل يوجد ما هو أعظم قداسة وجلالا من القرآن الكريم، لكى يتأكد السامعون أن الحالف لا يحنث فى قسمه ولا يقول إلا الصدق؟!.

فى قصة «المسطول والقنبلة»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، يصيح المتهم البرئ أيوب حسن طمارة فى المحقق: «أنا برئ.. وحق كتاب الله برئ». «٢١٣»

وإذا كان أيوب يقسم بـ «حق كتاب الله» أنه برئ، فإن آخرين يمارسون القسم بالكتاب الكريم المقدس، للبرهنة على صحة ما يصعب تخيله وتصديقه.

فتوات وصعاليك

هل يصدق أحد أن الفتوة الذى يقود جيشا من الأتباع فى قصة «الخلاء»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، هو نفسه ابن الحارة شرشارة، الذى أجبر فى الزمن القديم على تطليق زوجه، ليلة زفافه، حتى يتزوجها الفتوة لهلوبة؟. لا يصدق عم زهرة أن العائد القوى هو صبيه القديم الذى غادر الحارة ذليلا مهانا قبل سنوات، وكأنما يسعى إلى إقناع نفسه عندما يصيح، دون أن يعنى أحدا بخطابه: «شرشارة؟! وكتاب الله هو شرشارة ولا أحد غيره!». «٣٧»

تحول غرائبى خارق، وانتقال يصعب تخيله من الضعف والهوان إلى القوة والعزة، وليس إلا القسم بالقرآن الكريم وسيلة لتأكيد أن ما يحدث ليس كذبا أو وهما من صنع الخيال!.

وبالمنطق نفسه، يبدو من الصعب استيعاب التغيير الجذرى الذى طرأ على الصعلوك المتشرد عصام البقلى فى قصة «خطة بعيدة المدى»، مجموعة «الفجر الكاذب». تحول فى لحظة واحدة إلى مليونير يملك نصف مليون من الجنيهات: «المليونير عصام البقلى.. بعد الصعلوك المتسول عصام البقلى. كل من بقى على قيد الحياة من الأصدقاء القدامى هتف «أما سمعتم بما حصل للبقلى؟»، «ماذا حصل للصعلوك؟»، «البيت القديم اشترته شركة من شركات الانفتاح بنصف مليون»!.، «نصف مليون!!»، «وكتاب الله»..». «٧٨»

الخبر صحيح لا شك فيه، فقد انتقل المتشرد الفقير إلى طائفة الأغنياء، لكن صحة الخبر لا تحول دون الشك والدهشة، وليس إلا القسم بكتاب الله دليلا ساطعا يقطع كل الشكوك باليقين الحاسم، والإجابة لا تكتمل بمعزل عن القسم التأكيدى: كتاب الله!.

وهل يصدق أحد أن ماسح الأحذية العجوز عشماوى، فى «الحب تحت المطر»، وعمره يتراوح بين السبعين والثمانين، قادر على مضاجعة زوجه مرتين فى ليلة واحدة؟:

«- مرتين؟!

- وحق كتاب الله!». «٣٦»

أفعال أقرب إلى الخوارق والمستحيلات: الضعيف يتحول إلى فتوة، والفقير الصعلوك إلى مليونير، والعجوز إلى فحل؛ والقسم بكتاب الله هو الأداة الوحيدة لإثبات أن هذه التحولات، التى تقترب من دائرة العجائب، ليست من الأكاذيب والشائعات!.

وقد يأتى القسم لتأكيد انتفاء المجاملة، فى أمور نسبية لا خطورة فيها، ولا معنى للقسم من أجل البرهنة عليها.

أم كامل رؤبة، فى «السراب»، لا تحتاج إلى القسم وهى تمدح جمال ابنها وأناقته، لكنها تفعل: «كالقمر.. وحق كتاب الله!». «٧٥»

فى الأعمال التى أشرنا إليها، يأتى القسم بدوافع ذاتية لا إجبار فيها ولا إكراه، وفى حالات أخرى يُطلب القسم بالقرآن ليطمئن الطالب ويتيقن من صدق ما يسأل عنه. للقرآن الكريم قداسته ومكانته فى قلوب المسلمين جميعا، فمن ذا الذى يجرؤ على أن يقسم به كاذبا، فيعرض نفسه لعواقب وخيمة لا ينجو منها الكاذبون؟!.

أم أمينة، العجوز الضريرة فى «بين القصرين»، تفعل ذلك مع جاريتها صدِّيقة التى تلازمها فى المسكن: «ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن إلى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والأوانى وتنظيف النوافذ». «١٩٨»

وواحد من أعوان المرشح إبراهيم فرحات، فى «زقاق المدق»، يخاطب ناخبى الزقاق أثناء اجتماعهم فى قهوة المعلم كرشة: «لكم ما تريدون، ولنا القسم بكتاب الله، وبالطلاق». «١٥٠»

والأم فى قصة «الحاوى خطف الطبق»، مجموعة «تحت المظلة»، تقول لابنها الذى يدعى ضياع القرش منه:

«- تقسم على المصحف أنك لم تشتر به شيئا؟

ويرد الطفل الواثق من صدقه:

- أقسم». «٥٨»

هل تكذب الجارية صديقة فى ادعاء القيام بواجبها؟، وهل يكذب الناخبون من ساكنى الزقاق فى وعودهم بتأييد المرشح؟، وهل يكذب الطفل فى زعمه بضياع القرش؟. طالبو القسم لا يملكون دليلا يقينيا على صدقهم، والقرآن الكريم وحده هو الفيصل والحكم.

الخوف من القسم

فى هذا السياق، يمكننا أن نفهم الحرج الذى تستشعره عائشة عبد الجواد، فى «قصر الشوق»، ويدفعها إلى الارتباك والصمت، عندما تطلب حماتها «شهادتها» فى الصراع الحامى المستعر بينها وبين خديجة، ذلك أن عائشة تدرك ما يمثله القسم بالقرآن الكريم من مسئولية. إذ تحس المرأة العجوز أن غريمتها خديجة قد نالت بعض العطف، تقول بتحد: «هاكم عائشة أختها!، إنى أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت». «٢٦٤»

هل تشهد عائشة بالحق وتغضب شقيقتها، أم تشهد بالباطل وتخسر ضميرها الدينى وحماتها معا؟!. مأزق لا نجاة منه إلا بالصمت، والتهرب من الإجابة.

أما الذروة بالغة التعقيد فنجدها فى الصراع غير المتكافئ بين أحمد عبد الجواد وابنه فهمى، فى «بين القصرين»، أثناء اشتعال ثورة ١٩١٩.

الصدفة وحدها هى التى قادت أحمد عبد الجواد إلى اكتشاف أن ابنه فهمى «مجاهد»، يعرفه المجاهدون ممن يعملون معه فى لجنة واحدة، ونصائحه لابنه بالكف عن أى نشاط ثورى، لا تجد معارضة حقيقية من فهمى، لكن الأب لا يقنع بالوعود الصامتة، ويفكر فى إجراء جاد «مضمون» ليتأكد من التزام ابنه بالابتعاد عن موارد التهلكة والأنشطة الخطيرة: «قام الأب فجأة واتجه إلى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد إلى مجلسه حاملا القرآن، ونظر إلى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب إليه وهو يقول:

– أقسم لى على هذا الكتاب..

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره، كأنما يفر من لسان لهب امتد إليه فجأة، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر إليه فى غرابة وإنكار، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه:

– ألا تريد أن تقسم؟!

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخللته رعشة متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعته الرعد:

– أكنت تكذب على؟». «٤٠٣»

تصرف أحمد عبد الجواد يوحى بإدراكه أن القسم على الكتاب، بكل ما له من هيبة وقداسة، سيمنع فهمى من المشاركة فى النشاط الثورى، ورد فعل الابن: «كأنما يفر من لسان لهب امتد إليه فجأة»، يكشف عن إدراك الشاب الجامعى الوطنى لخطورة أن يقسم ويحنث فى قسمه. لو أنه أطاع وأقسم، لوجب عليه الالتزام والامتناع عن النشاط، وليس فى مستطاعه، وهو المتدين ذو الضمير الحى، أن يقسم ويستمر فى العمل الذى تعهد، والقرآن الكريم شاهد عليه، أن يكف عنه ويمتنع.

لا مشكلة عند فهمى أن يعد بالامتناع عن العمل الثورى، ذلك أنه سيخالف الوعد بلا حرج، أما العهد الذى يرادفه التزام قرآنى فشأن آخر مختلف، ويمثل مأزقا لا مهرب منه ولا سبيل إلى النجاة. ولقد فهم أحمد حيلة ابنه، الذى لا يجد حرجا فى أن يكذب بلا قسم، لكنه يجد الحرج، كل الحرج، فى أن يقسم بالقرآن ويحنث، ولذلك يستمر الصراع، ويتناول الأب الكتاب مرة أخرى:

«- أقسم.. آمرك بأن تقسم..

ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق..

لم يملك فهمى عند ذاك إلا أن يبكى». «٤٠٤»

البكاء هو السبيل الوحيد للخروج من حصار الصراع العنيف المشتعل فى قلب الابن: الاستمرار فى الثورة الوطنية، تجنب إغضاب أبيه، الإصرار على عدم القسم الكاذب. ثلاثية مدمرة تحاصره ويضيق بها، ولا تنفيس إلا بالبكاء كخلاص مؤقت.

لم يحاول فهمى، بعد بكائه وهروبه، أن يسترضى أباه ويصالحه: «خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه، لأنه قدر أن يدعوه السيد إلى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه». «٤٦٦»

استمرار غضب الأب أمر موجع ومحتمل، مقارنة بما قد يترتب على الاعتذار والمصالحة من اضطرار إلى القسم دون التزام.

وأحمد عبد الجواد نفسه يبدو مشغولا ومهموما بـ «عصيان» ابنه، كما يتجلى فى قوله للشيخ متولى عبد الصمد: «ولكنى دعوته إلى أن يحلف على المصحف بألا يشترك فى أى عمل من أعمال الثورة فبكى». «٤٤٧»

يتجنب فهمى مصالحة أبيه، خوفا من مواجهة «الامتحان الرهيب» من جديد، ولا ينسى أحمد عبد الجواد «عصيان» ابنه الحبيب وإن «تجمل» حتى لا يواجه نفسه، قبل الآخرين، بأن أحد أبنائه، وأفضلهم وأقربهم إلى قلبه، قد خالف أمره!.

أى تأثير سحرى للقرآن الكريم؟!، وأى أثر يتركه فى قلوب وعقول المسلمين؟!، وأى مغزى عميق الدلالة فى ميل فهمى إلى احترام القرآن وقداسته على حساب طاعة أبيه، التى تمثل فرضا تقليديا فى تربيته؟!. انتهت الثورة، ونجا الابن من أهوالها قبل أن يموت فى المظاهرة السلمية التى نظمت ابتهاجا بنجاحها، ولم ينس أحمد أن ابنه قد امتنع عن طاعته: «امتناعه عن القسم الذى لا يزال يحز فى نفسى». «٤٦٨»

فهمى ضمير حى معذب، والأنموذج الذى يمثله شائع منتشر، لكن فاقدى الضمير لا يعبأون بشىء، وليس أدل على ذلك من أن المهندس على بكير،

فى «ميرامار»، يقول لصديقه سرحان البحيرى، بعد أن انتهى من ترتيب إجراءات السرقة التى يزمعان القيام بها: «أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم، سواق اللورى مضمون، وكذلك الخفير، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن»!.

يضحك سرحان رغما عنه، وينظر إليه على بكير متسائلا، قبل أن يدرك «النكتة» التى أفلتت منه بلا قصد. ضحك بدوره، ثم قطب قائلا: «ليكن، إنه مال بلا صاحب..». «٢٠٨»

«النكتة» المأسوية أن يكون القسم على القرآن الكريم، لتنفيذ عمل غير مشروع، والمأساة التى لا تقل هولا، أن يبحث المهندس فاقد الضمير عن تبرير للنكتة، فيزعم أن المال بلا صاحب، والحقيقة الراسخة أن القرآن الكريم يتغلغل فى نفوس الجميع، حتى عتاة اللصوص!.

نهاية المطاف

يلعب القرآن الكريم دورا محوريا فى بناء عديد من شخصيات نجيب محفوظ، ويتم ذلك بأساليب مختلفة تتوافق مع طبيعة الشخصية وملامحها العامة: مأمون رضوان فى «القاهرة الجديدة»، عاكف أفندى وابنه أحمد فى «خان الخليلى»، رضوان الحسينى فى «زقاق المدق»، كامل رؤبة لاظ فى «السراب»، حسنين كامل فى «بداية ونهاية»، الشيخ على الجنيدى فى «اللص والكلاب»، عامر وجدى فى «ميرامار»، محتشمى زايد فى «يوم قتل الزعيم».

يتجسد المؤثر القرآنى من خلال سور وآيات بعينها عند بعض هؤلاء الشخوص، ويتجلى التأثير بشكل عام عند شخصيات أخرى. ما يعنينا هنا هو ارتباط القرآن الكريم بنهاية العمر، حيث يمثل السلوى الوحيدة والأمل الأخير للتوافق، عند العجائز والعاجزين الذين يقتربون من محطة النهاية. أليس هذا ما يفعله العجوزان عامر وجدى ومحتشمى زايد؟!.

الملاذ الأخير

محتشمى زايد، فى «يوم قتل الزعيم»، يبدو واضحا وهو يهيئ نفسه لملاقاة ربه، معتزا بأنه لم يلحق الأذى بإنسان فى عالم حافل بالشرور:

«والشيخوخة قضيتها جوالا بين كلماتك وأنبيائك وأوليائك». «٧٦»

ولا يتعارض طموح محتشمى إلى الكرامة والولاية، مع تشبثه بالحياة وولعه بمتابعة أحداثها، فهو يقضى أيامه الأخيرة موزعا بين الدين والدنيا،

دون إحساس بوجود تناقض بينهما: «اليوم يمضى بين العبادة والتلاوة والطعام والأغانى والأفلام». «٤٢»

أما عامر وجدى، فى «ميرامار»، فإنه يعتزل العمل الصحفى ويعود إلى مسقط رأسه فى الإسكندرية، معتكفا فى بنسيون صديقته اليونانية. عند انفراده بنفسه فى حجرته، التى يسبح جوها فى مغيب دائم، يبدأ فى تلاوة سورة «الرحمن» ليست قراءة تقليدية، فهى مصحوبة بتعليق يكشف عن علاقته الوثيقة مع السورة: «ومضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى منذ كنت فى الأزهر». «٢٧»

علاقة تاريخية تعود إلى عهد الأزهر، الذى طُرد منه متهما بالشك والإلحاد، وجزئيات المشهد تتوافق مع إيقاع السورة وهطول المرض والمغيب الدائم والجلسة المسترخية والحيرة القديمة المتجددة. ليست قراءة للسورة فحسب، لكنها أيضا قراءة للذات وبحث عن المعنى المراوغ.

العجوز المعتزل، ذو الحياة الغنية الحافلة بالتجارب والخبرات، يجد فى السورة ما يتناغم مع نهاية المطاف، فهو يقف على شاطئ الرحيل، باحثا فى إصرار عن الإمساك باليقين الغائب. إن لم يكن العقل قادرا على إسعافه ومعاونته، فلتكن السورة مدخلا للكشف عن المخبوء فى أعماق يعجز العقل عن إدراكها.

سورة «الرحمن» أقرب إلى «العادة» المستقرة فى حياة العجوز الحكيم، فهو «يهرع» إليها تاليا ما يجلب له التوازن والانسجام والتوافق. ثمة نصيحة يقدمها للخادم زهرة، نابعة من تجربته الدنيوية، ثم يلجأ إلى سورته الحبيبة، فهى الزاد الذى يتهيأ به للرحلة الأخيرة المجهولة.

استغراق وسكون

عاش محتشمى زايد وعامر وجدى، كل على طريقته، حياة حافلة توجت بالقرآن، أما عاكف أفندى فيمثل أنموذجا مثاليا للاندماج الكامل مع القرآن الكريم قرب نهاية العمر، وهو عمر خامد لا حيوية فيه ولا توهج.

عن اضطرار وعجز، قطع عاكف صلته بالحياة والأحياء، ومنذ بداية الرواية نجده متربعا على سجادة الصلاة، والمصحف بين يديه: «يتلو ما تيسر منه فى صوت مسموع، غير منتبه إلى أخطاء القراءة العديدة التى يتتابع عثوره بها». «٢٣»

السجادة والمصحف هما الملاذ والملجأ، بعد أن أغلقت أبواب الحياة أمامه وهو فى قمة رجولته. ليس الدافع هنا هو العجز والاستسلام للموت، لكنه اليأس من التواصل مع الحياة والأحياء: «وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب إحالته على المعاش وهو فى أواسط العمر ومشرق الآمال، وبدا كأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن». «٢٣»

القراءة حافلة بالأخطاء، وهو ما ينم عن محدودية ثقافة الرجل، بما لا يؤهله للمقارنة مع المثقفين الكبيرين محتشمى وعامر، والقراءة القرآنية تعبير عن الإفلاس وقلة الحيلة والعجز عن المواجهة، بخلاف العجوزين المتوهجين بثراء لا حدود له، ومن هنا، فإن الوجود الروائى الباهت المحدود لعاكف أفندى، لا ينفصل عن السجادة والكتاب.

الاستغراق فى العبادة والتلاوة، لا يحول بينه وبين العالم لكن بقدر محدود، فهو فى حالة سكونية لا تثير دهشة أحد ممن حوله، وقد يواجه ببعض

الامتعاض من الزوجة المقبلة على الحياة، والمحبة للمرح والسخرية: «كان صدرها يضيق إذا رأت بعلها مكبا على القرآن، وبكرها عاكف على مكتبه، فتصيح بهما: هلا علمتمانى القراءة لأجاور معكما؟!». «٢٥»

لا يمثل عاكف أفندى أهمية خاصة فى عالم نجيب محفوظ، لكنه يجسد نمطا من البشر، يتفرغون للعبادة وقراءة القرآن الكريم، قرب نهاية العمر.

التهيؤ للرحيل

حسن وهبى، القتيل الأول فى قصة «ضد مجهول»، مجموعة «دنيا الله»، أنموذج مماثل، بقدر ما نعرف عنه من تفاصيل محدودة. مدرس بالمعاش، فوق السبعين، يعيش وحيدا، ونظامه اليومى لا يزيد عن قراءة الجرائد، وتلاوة جزء من القرآن بصوت مسموع. «١٠١»

وشيوخ قهوة «الكرنك» لا يختلفون كثيرا عن عاكف أفندى وحسن وهبى، وفى ثرثرتهم اليومية يتبادلون النصائح والوصفات، التى تنتهى بمقولة شاملة جامعة: «وبعد كل شىء وقبل كل شىء قراءة القرآن». «٣٢»

وفى «قشتمر»، يقف صادق صفوان فى منطقة وسطى بين التوهج والخمول، فقد أمضى حياته عاملا فى دأب وإصرار، وسعى قدر طاقته إلى الجمع بين الدين والدنيا، لكنه مع قرب النهاية يتخذ موقفا يحتمه عليه الكبر والمرض: «باع دكانه، وتفرغ لتربية نهى، ومهادنة الروماتيزم، وقراءة القرآن والحديث». «١٢٧»

ولا تختلف دنانير، فى «حديث الصباح والمساء»، عن صادق. عاشت حياتها عاملة وحيدة: «حتى أحيلت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة. ولم يعد لها من عزاء فى هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن». «٨٩»

لماذا يمثل القرآن الكريم ملاذا عند التقدم فى العمر؟!. لأن العجز عن التمتع بالحياة يمثل دافعا قويا للانكباب على العبادة، وإذا تحقق مثل هذا العجز فى ريعان الشباب، وإذا اقترب الموت قبل المألوف والمعتاد، لأسباب مرضية، تصبح العبادة واجبة، والتلاوة ضرورة وسلوى.

تعرض رشاد نعمان الرشيدى، فى «الباقى من الزمن ساعة»، لإصابة خطيرة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبترت ساقاه: «صلى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخارى ويزداد تقبلا لقدره ورضا عنه». «١٤٤»

شاب هو، لكنه لا يحمل مؤهلات الشباب من الحركة والحيوية، وفى سكونه يماثل العجائز ويقتدى بهم.

أما رشدى عاكف، فى «خان الخليلى»، فيستفحل مرضه حتى يتيقن من النهاية، وإذا بالشاب الملئ بالحيوية والنشاط، يصل إلى نهاية المطاف، ويلوذ بأحضان القرآن الكريم تائبا مستغفرا، كاشفا عن جوهر شخصيته المؤمنة، على الرغم من اللهو والعبث والخمر والقمار والنساء: «واستيقظ فى صباح اليوم الثانى أهدأ نفسا وأهدأ قلبا. ولما جاء أحمد يصبح عليه طلب إليه أن يعيره القرآن. وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور وسأله:

- أليس من الحرام أن ألمسه ولما أستحم منذ أشهر؟!

فقال له مبتسما:

«- عذرك مقبول عند الله..

ومضى يقرأ الكتاب، ولولا خوف السعال، لتلاه بصوته العذب. ووجد فى القراءة لذة وسلاما، واطمأن بذكر الله قلبه، ونسى به الحنين إلى الماضى السعيد، والحسرة على ما فات منه، والندم على ما فرط منه فيه، بل نسى به التوجع الدائم لما صار إليه حاله، واليأس من الشفاء الذى قبض قلبه منذ أمس، والخوف من النهاية التى تتخايل لعينيه، وفر أخيرا من آلامه ومخاوفه لائذا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكل على الله. ووجد ارتياحا فى الإذعان المطمئن إلى إرادة الله وقضائه». «٢٣٥»

لا يملك رشدى مصحفا، فيضطر إلى استعارته من أخيه، ويتساءل عن جواز أن يلمس القرآن دون طهارة، ويندمج فى القراءة مدركا ما فى القرآن من لذة وسلام. بالتلاوة فى اللحظات الروحية الخالصة، ينسى ما فات، ويندم على الإفراط، ويتوافق مع واقعه، ويصل إلى راحة اليقين ومتعة الاستسلام للموت مسلحا بالأمل فى المغفرة.

قد لا يكون عجوزا عندما تقاس الأعمار، لكنه يواجه اللحظة التى تقترن دائما بكبار السن، أولئك الذين تحاصرهم أشباح الموت، وتسيطر عليهم هواجسه.

القرآن والفكاهة

يمكن التمييز بين نمطين من الفكاهة المرتبطة بالقرآن الكريم: النمط الأول يقترن بآيات محددة، والنمط الثانى يدور حول عموم القرآن الكريم، دون تحديد لآيات بعينها.

القرآن الكريم نفسه ليس موضوعا للفكاهة بطبيعة الحال، لكن ممارسات البشر هى التى تفجر المفارقات الباعثة للسخرية والفكاهة.

دعارة وتجارة

لا يستطيع عثمان بيومى، فى «حضرة المحترم»، أن يغادر غرفة العاهرة قدرية، بعد اشتداد المطر وجعجعة الرعد: «ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها — كعادته — بصوت مسموع. وسألته قدرية:

- قرآن؟

فهز رأسه بالنفى وهو يبتسم». «٤٤»

كل قراءة، بصوت مسموع، هى تلاوة قرآنية عند العاهرة!. ليست المفارقة فى الخلط، المبرر بالجهل، بين القرآن الكريم والمواد الدراسية، لكنها فى أن الأمر كله يدور فى بيت دعارة!.

وفى «المرايا»، يرصد العالم التراثى عباس فوزى، فى استياء وغضب، ما جناه أحد تلاميذه من أرباح طائلة، نتيجة تأليف كتب دينية رائجة عن

القرآن الكريم والنبى عليه السلام، ويتساءل فى أسى:

«- كيف فاتنى ذلك الباب الذهبى؟!

ويتوجه بسؤال إلى الراوى:

- أتعلم ما هى الثروة الحقيقية فى بلاد العرب؟

ثم يجيب بنفسه:

- ليست البترول ولكنها السيرة النبوية والقرآن». «٢٣٦»

كلمات غاضبة حانقة، كأنه يتحدث عن سلعة وتجارة، وليس عن القرآن الكريم. وتزداد المفارقة باندماج عباس، وهو ملحد، فى استثمار الكتابة عن الدين والقرآن، بالمشاركة مع ملحد مثله، لتحقيق أرباح هائلة!.

قدرية وعباس لا يسخران من القرآن الكريم، لكنهما يتوقفان أمام ممارسات غير سوية مرتبطة به: قراءة عثمان بيومى فى مذكراته الدراسية التى تظنها قدرية قرآنا، ومتاجرة تلميذ عباس بالقرآن والدين فى صورة كتب لا هدف لها إلا التجارة.

تهكم وأكاذيب

وقد تتوجه السخرية إلى أشخاص يقترنون بالقرآن، وهى سخرية من الأفراد دون الكتاب نفسه.

يرفض رضوان الحسينى، فى «زقاق المدق»، أن تفسخ أم حميدة فاتحة ابنتها مع عباس الحلو، وتنتقل إلى سليم علوان، ولا تروق هذه «الفتوى» لحميدة، فتعلن الحرب على الرجل الذى يقف فى طريق سعادتها، وتشكك

فى قدرته على فهم أمور الحياة: «فلا تسألى السيد عن زواجى وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة!». «١٤٢»

حدود رضوان فى القرآن الكريم وتفسير آياته، أما الزواج فإنه يتجاوز علمه وقدراته!. تستهين حميدة بمدارك الشيخ، وتأبى إلا أن تضرب برأيه، فتواه، عرض الحائط!.

وليلة زواج عبد المنعم شوكت من نعيمة، فى «السكرية»، يستدعى أحمد عبد الجواد حفيده: «وطلب إليه أن يتعهد بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلاما جميلا مريحا مستشهدا فى أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك فى نفس جده آثارا متباينة من الإعجاب والسخرية»!. «١٤٤»

الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية جدير بالإعجاب، لكن طريقة عبد المنعم، بما فيها من مبالغة، تثير مزيجا من الامتعاض والسخرية!.

ولكمال عبد الجواد، فى طفولته التى تقدمها «بين القصرين»، مواقف وممارسات فكاهية، وثيقة الصلة بالقرآن.

إنه يخاف أباه أكثر مما يخشى العفاريت، وله منطقه الذى لا يخلو من وجاهة: «فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا ثار أن يتول كتاب الله كله». «٥٠»

طفل يحكى منطق الأطفال، وما يعيه من معطيات الواقع. بالفاتحة والصمدية ينجو كمال من العفاريت، أما غضب الأب فلن يفلح القرآن الكريم كله فى ترويضه!.

وكمال، المولع بالغناء، يجد نفسه مضطرا إلى الكذب، خوفا من أبيه، ورغبة فى إرضائه. ليلة فرح عائشة، يسأله محمد عفت، صديق أبيه الحميم:

«- ألا تحب أن تسمع شيئا؟

فقال كما وهو يلحظ أباه:

- القرآن الشريف.

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا:

- إن صح هذا فالغلام ابن زنا». «٢٤٤»

إجابة كمال لا تستهدف الحق، لكنها تروم رضا الأب، ويعلم الطفل أن فى إعلان حبه لسماع القرآن الكريم ما يرضى الأب ويغضب الحقيقة. أحمد عبد الجواد نفسه يعى كذب ابنه، وكذلك يعرف الأصدقاء، لكن الكاذب لا يفكر إلا فى الإجابة المناسبة المنقذة من الغضب وما قد يترتب عليه من عقاب!.

الوحى بالإنجليزية

وثمة فكاهة أخرى ترتبط بسلوك أشخاص يحظون بالسخرية، التى تتخللها الإشارة إلى القرآن الكريم.

إسماعيل قدرى، فى «قشتمر»، موظف بسيط فى دار الكتب ذى دخل محدود، ومناجاته لامرأة فى شارع الجبلاية يثير تعليقات شتى من أصدقائه، ومن

هذه التعليقات الساخرة ما يقوله حمادة الحلوانى لتفسير قدرته المالية: «أراهن أنه اختلس المصاحف الأثرية من دار الكتب وباعها». «٨٦»

ليست سرقة عادية، لكنها سرقة المصاحف الأثرية!.

ولاشك أن هذه السرقة المتوهمة، أقل إثارة للدهشة مما يقوله المهندس على بكير، فى «ميرامار»، لصديقه وشريكه سرحان البحيرى، بعد ترتيب كافة الإجراءات الخاصة بسرقة الشركة التى يعملان بها: «لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن»!. «٢٠٨»

القسم على القرآن الكريم من أجل السرقة!.

عثمان بيومى، الموظف الطموح، وقدرية، العاهرة، وعباس فوزى، عالم التراث الملحد، ورضوان الحسينى، المتدين الورع، وحميدة، المادية الجشعة، وأحمد عبد الجواد، متعدد الوجوه، وعبد المنعم شوكت، الإخوانى، وكمال عبد الجواد، الطفل، وحمادة الحلوانى، الثرى العاطل، وإسماعيل قدرى، السياسى البائس، وعلى بكير، المهندس المختلس؛ جميعهم يشاركون فى فكاهات تتعلق بالقرآن ولا تسخر منه، ذلك أن البطولة لسلوكيات وتصرفات وأفعال يدخل القرآن الكريم طرفا فيها.

مرة واحدة ينتقل الأمر من الشخوص إلى الروائى نفسه، عندما يختتم تقديمه الأول لشخصية الشيخ درويش، فى «زقاق المدق»، قائلا: «بيد أنه رجل محبوب مبارك، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين، يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية». «١٥»

«يقولون عنه»، وينقل الراوى ما يقال. الوحى من المفردات المرتبطة بالقرآن الكريم، ودرويش، المولع باستخدام اللغة الإنجليزية، يأتيه وحى خاص باللغتين معا!.

الفصل الثانى

قراءات تطبيقية

توقف الفصل الأول أمام عموم الموقع الذى يحتله القرآن الكريم فى الواقع المصرى، الذى يبرع نجيب محفوظ فى وصفه وتجسيده، أما الفصل الثانى فأقرب إلى الدراسة التطبيقية التى تقدم تحليلا لسور وآيات بعينها، بحثا من خلال هذه العينة عن بعض جوانب التأثير القرآنى المتفرد، ويضم الفصل عينات دالة:

- بسم الله الرحمن الرحيم
- الفاتحة.
- الآية رقم ٩٥ من «سورة البقرة»، التى يكشف استخدامها المتنوع عن الفهم المتغير المتباين، وليد المصلحة الذاتية، للنص القرآنى.
- آية الكرسى والتفاعل الشعبى معها
- سورة الإخلاص ومكانتها الاجتماعية

من مجمل النماذج السابقة، يتأكد أن القرآن الكريم يتغلغل فى نسيج الحياة اليومية بما يتجاوز المعطى الدينى المقدس، فالأمر وثيق الصلة بنثريات ودقائق السلوك البشرى بالغ التعقيد، ولذلك يتحول القرآن الكريم إلى جزء أصيل معتاد من اللغة المتداولة الشائعة، وعنصر فاعل فى السلوكيات والمعتقدات التى لا ترتبط بالدين وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم الله الرحمن الرحيم» بداية السور القرآنية، وهى بداية لكل بداية، ومدخل لكل مدخل، أو كما يقول الرحالة قنديل محمد العنابى، الشهير بابن فطومة، فى «رحلة ابن فطومة»: «وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم». «٥»

كل فعل جميل أو قبيح يبدأ بالبسملة؟. لا تخلو المقولة من مبالغة، لكنها لا تخلو أيضا من الصواب، وفى عالم نجيب محفوظ ما يدلل على الصدق النسبى لما يقوله الرحالة.

تنوع وتعدد

فى «خان الخليلى»، ينتقل أحمد عاكف من «السكاكينى» إلى مسكن جديد فى «خان الخليلى»، وأول دخول له إلى المكان يبدأ بالبسملة: «ثم اقتحم الباب مغمغما.. بسم الله الرحمن الرحيم». «٨»

وبالبسملة أيضا يبدأ تناول الطعام، كما نجد فى إحدى لوحات «أصداء السيرة الذاتية»:

«ودعانى للعشاء فجلست.

وما كدنا نبسمل حتى ترامى إلينا..». «٧٨»

«بسم الله الرحمن الرحيم» مراودة للبركة فى المسكن والمأكل، وهما مما يدخل فى باب الأفعال الجميلة، وبالبسملة نفسها تتضح بدايات الحب والهزل عند آخرين.

فى «خان الخليلى»، يضع رشدى عاكف راحتيه حول قذاله، كمن ينوى الصلاة: «ويتمتم قائلا.. بسم الله الرحمن الرحيم.. نويت الحب، والله المستعان!.» «١١٥»

بهذا الطقس الهزلى الكاريكاتورى الغريب، يفتتح رشدى علاقته العاطفية الجديدة مع جارته!.

وفى «السكرية»، يحتج عبد الرحيم باشا عيسى على رغبة ضيفيه رضوان ياسين وحلمى عزت فى الانصراف المبكر، وثلاثتهم فى الشذوذ الجنسى سواء، لأن السهرة لم تكد تبدأ بعد: «لم نقل إلا باسم الله الرحمن الرحيم». «٨٧»

المقصود أنهم فى «بداية» السهرة، والنهاية الموعودة لم يصلوا إليها بعد!.

وعلى جانب آخر، تمثل البسملة أداة لبث الطمأنينة ودفع الخوف عند من يواجهون موقفا صعبا أو أزمة مرعبة.

فى «قصر الشوق»، تحذر الخادم أم حنفى أحفاد أحمد عبد الجواد من الحديث عن البئر أو الاقتراب منه: «لا تذكروا البئر، وقولوا معى: باسم الله الرحمن الرحيم». «٢٩»

العفاريت تسكن البئر، ولا نجاة إلا بالبسملة.

وفى مسرحية «الشيطان يعظ»، يعتزم الشيخ عبد الصمد القدوس أن يخوض مغامرة غير مأمونة فى «مدينة النحاس» الأسطورية، ويستعين على المخاوف والأهوال بالبسملة:

«- سأقدم على مغامرة، بسم الله الرحمن الرحيم». «٣٣٩»

الجداريات

لوحات البسملة المعلقة على الجدران هى الأكثر شيوعا وانتشارا فى عالم نجيب محفوظ، ووجودها ليس دليلا على التدين والانضباط السلوكى بقدر ما هو «عادة» اجتماعية قد يلتزم بها أبعد الناس عن الالتزام الدينى فى الحياة اليومية.

نعمة الله الفنجرى فى قصة «أهل الهوى»، مجموعة «رأيت فيما يرى النائم»، شيطانة فى صورة امرأة قوية، وشهواتها مسيطرة وموجهة لسلوكها، لكن حجرتها الأنيقة التى تشتعل فيها مغامرات الجسد: «مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة». «٢٣»

والفتوة موجود الدينارى فى قصة «الرجل الثانى»، مجموعة «الشيطان يعظ»، يعلق هو الآخر بسملة مذهبة. «٩»

وفى منزل المرحوم محمد رضوان، فى «قصر الشوق»، ولابنته مريم وأمها تاريخ حافل بالتجاوزات الأخلاقية، يطالع ياسين عبد الجواد على الجدار المواجه لباب غرفة الاستقبال: «البسملة فى إطار أسود كبير». «١٣٢»

بل إن ياسين يلجأ إلى التحديق فى البسملة، ليوحى لأم مريم بأنه مستغرق فى تفحص اللوحة المعلقة، وليس فى تأمل تفاصيل الجسد الضخم الذى يذهله!. «١٣٩»

نعمة الله الفنجرى «الشيطانة»، وموجود الدينارى «الفتوة»، وأم مريم «الشهوانية»؛ يعلقون البسملة على جدران منازلهم، فى إطارات مذهبة

أنيقة، كجزء من الأثاث وأداة للزخرفة، ولا علاقة للأمر بالدين أو القرآن الكريم.

والبسملة تصاحب السيد أحمد عبد الجواد فى دكانه، منذ بداية ظهوره فى الثلاثية حتى اعتزاله للعمل.

فى «بين القصرين»، مع بداية التعرف على الدكان ومحتوياته، تظهر البسملة: «وفى منتصف الجدران فوق المكتب على إطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب». «٣٦»

ولأنها من المعالم الراسخة للدكان، فإن تحديد مكان صورة الزعيم سعد زغلول يقترن بها، فى قول أحمد لوكيله جميل الحمزاوى: «علق صورة سعد تحت البسملة». «٤٦٠»

وقد تتغير صورة سعد فى «قصر الشوق»، لكن البسملة ثابتة لا تتزحزح ولا يتبدل مكانها: «وفوق رأسه صورة سعد زغلول فى بدلة الرياسة معلقة فى الجدار تحت إطار البسملة القديم». «١٢١»

ويقترب الرجل من النهاية فى «السكرية»، والبسملة كما هى:

«.. وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة». «١٨»

بركة وزينة وعلامة على الدين، دون نظر إلى قوة المشاعر الدينية والالتزام بها!.

الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

تحتل فاتحة الكتاب موقعا بالغ الأهمية فى عالم نجيب محفوظ، وتتمثل أهميتها فى عدة محاور، يمكن تحديدها على النحو التالى:

- الفاتحة والزواج
- الفاتحة والموت
- الفاتحة أداة للتمنى والمقاومة
- الفاتحة والفكاهة
- خصوصية الآية الأولى من الفاتحة: «الحمد لله رب العالمين»

الإحاطة بهذه المحاور مجتمعة، تمثل محاولة للتوقف التفصيلى أمام الدور الذى تلعبه الفاتحة عند نجيب محفوظ، وهو دور يجسد قمة التجاورية بين الدين والدنيا. بالفاتحة نتزوج، ونترحم على الموتى، ونراود الأحلام والآمال، ونقاوم المخاوف، ونضحك، ونتمثل بالآية الأولى: «الحمد لله رب العالمين»، التى تمثل جزءا نابضا فى لغة الحياة اليومية.

مرادف للزواج

قراءة الفاتحة، وبخاصة فى الأوساط الشعبية، جزء أساسى فى منظومة الزواج. وقد لا تكون زنوبة العوادة، ربيبة العوالم فى «بين القصرين»، حجة فى الكشف عن العادات والتقاليد والطقوس الاجتماعية الراسخة، لكنها تقدم أفضل صياغة، فى عالم نجيب محفوظ، للموقع الذى تحتله الفاتحة فى عملية الزواج، فهى تترجم كلمة «اللقاء»، التى يقولها ياسين قاصدا بها الاتصال الجنسى، فى عبارة واضحة: «الواحد منكم يطلب بكل بساطة «اللقاء».. كلمة صغيرة.. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون». «٢٣٣»

بعد السؤال والشفاعة، تأتى الفاتحة، سابقة للمهر والجهاز؛ والتتويج النهائى بالمأذون.

قد تكون الفاتحة كلمة عادية متداولة، لكنها «خبر» يستقبل عند المهتمين كمرادف لكلمة الزواج، ومقدمة له. ولذلك تترتب عليه أخطر النتائج، كما نجد فى الحكاية رقم «٣٨» من «حكايات حارتنا»، التى تبدأ على النحو التالى:

«وأنا ألعب فى الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديب.

أكثر من صوت يتساءل:

– خير إن شاء الله.

فيبشرنا أحدهم قائلا:

- قُرئت فاتحة نعيمة السقاف على شيخون الدهل». «٨٣»

ثم يأتى رد فعل فتحية قيسون، العنيف الشرس، لتكتمل الحكاية، وليس رد الفعل هذا إلا بمثابة النتيجة المنطقية لإدراك المرأة أن خبر «قراءة الفاتحة»» يقود بالضرورة إلى الزواج.

مع من تقرأ الفاتحة؟!.

شمس الدين عاشور الناجى، فى ملحمة «الحرافيش»، يقرأ الفاتحة مع دهشان، شقيق عجمية التى يروحها زوجة له:

«- ما قولك يا دهشان؟

- يا له من شرف لم أحلم به يا معلمى..

فمد له يده قائلا:

- إذن فلنقرأ الفاتحة». «١١٣»

هذه القراءة «الثنائية» تثير غضب أم شمس الدين، المستبعدة من عموم العملية: «أما كان يجب أن تشاورنى قبل أن تفعل؟». «١١٤»

أما سماحة الناجى، فى الرواية نفسها، فيقرأ الفاتحة مع أم العروس مباشرة!. «٢٠٧»

الأكثر اتساقا مع الأعراف والتقاليد، هو ما يفعله صادق صفوان فى «قشتمر»: «لقد سألت والدتى أن تقرأ الفاتحة مع ست فاطمة أم إحسان». «٤١»

قراءة الفاتحة تمهيد ومقدمة للزواج، والأولى، تبعا لذلك، أن يتم التعامل معها كبديل أو مرادف للخطوبة، و «العطف» بينهما نجده فى معرض الحديث عن وفاة الشيخ معاوية القليوبى، فى «حديث الصباح والمساء»:
«ولكن لم يتسن للشيخ شهود الزفاف فقد وافاه الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة» و «قراءة الفاتحة». «١٥٦»

فعلان متداخلان متشابكان، الخطبة وقراءة الفاتحة، تربطهما «واو» العطف.

وإذا تعذر إعلان الخطوبة، فلتكن الفاتحة بديلا عنها، ودلالة حاسمة على «حجز» المخطوبة حتى لا يتقدم لها منافس آخر.

زواج فى المهد

صغر السن، يجعل من إعلان خطوبة سهام محمد حامد برهان، على ابن عمتها رشاد نعمان الرشيدى، فى «الباقى من الزمن ساعة»، فعلا غرائبيا مضحكا، والبديل المطروح هو قراءة الفاتحة عائليا، حتى يحين الوقت المناسب:

«- وسهام هدية أيضا ولكن إعلان الخطوبة الآن أمر يدعو للضحك..

- هل ترفض؟

- أبدا.. لنقرأ الفاتحة.. ليكن حجز حتى يجئ الوقت المناسب». «٧٠»

وإذا كان إعلان خطوبة سهام ورشاد، وهما فى سن المراهقة، يبدو مضحكا عند الطبقة الوسطى المثقفة، فإننا نصادف قراءة الفاتحة فى المهد عند الطبقات الشعبية!.

زهيرة، فى «الحرافيش»، قرئت فاتحتها منذ مولدها، وحجزت لعبد ربه الفران، كما تقول أمها: «فاتحتها مقروءة منذ مولدها». «٣٢٦»

ولأن قراءة الفاتحة ترادف الخطوبة، وتعنى وعدا صريحا بالزواج، واتفاقا لا تراجع فيه، فإن النكوص عنها يمثل عقبة ومشكلة متعددة الجوانب.

قد يكون عزت عبد الباقى، فى «عصر الحب»، هو أغنى أغنياء الحارة، وقد تكون أمه، الست عين، ذات مكانة فريدة، لكن قراءة فاتحة بدرية المناويشى يمثل حاجزا منيعا أمام طموحه للارتباط بها.

فى مرحلة الأحلام والتفكير السلبى، عرف فى الحارة أن عبد الحميد الكومى خطب بدرية، وأن الفاتحة قد قرئت. «٥٦»

ولأن الفاتحة التزام وميثاق، فإن محاولة عزت الفردية لاقتناص بدرية بعد قراءة فاتحتها، تصطدم بأبيها الذى ينبهه إلى الأعراف والتقاليد الصارمة: «لقد قرأنا الفاتحة، وكان بوسع والدتك أن تتكلم لو توفرت لها الرغبة». «٥٧»

وليس أدل على خطورة قراءة الفاتحة، وما تمثله من التزام اجتماعى، من طلاق أم بدرية بعد أن هربت الابنة، المرتبطة بالفاتحة، مع حبيبها الحقيقى حمدون عجرمة.

الأزمة فى الحالة السابقة فردية، تنتهى بهروب بدرية ونهاية الحياة الزوجية لأمها، وثمة أزمة مماثلة نجدها فى ملحمة «الحرافيش»، وتنتهى بتراجع مشين للشقيقين الخاطبين بعد أن تغيرت أحوالهما المالية.

فى مرحلة الفقر، قرئت فاتحة عاشور وضياء على فتحية وشكرية، ابنتى محمد العجل. «٥٢٢»

ثم هبطت الثروة من السماء، وتبدلت الأحوال بعد عودة الأخ الغائب، بحيث لم يعد الشقيقان متوافقين مع المشروع القديم: «واعترضت الطريق المنبسط عقبة كالحة، هى قراءة فاتحة شكرية وفتحية!. فرضت نفسها عليهم من أول يوم». «٥٢٧»

سرعان ما يعلن ضياء تراجعه مديرا ظهره للفاتحة المقروءة، أما عاشور، بضميره الدينى اليقظ والتزامه الأخلاقى، فإنه يعانى تمزقا قاسيا موجعا بين ما قطعه على نفسه من عهد، وما يحسه من تغيير:

«– سألته أمه: وأنت يا عاشور؟

فأجاب مغلوبا:

– لقد قرأنا الفاتحة». «٥٢٨»

يأبى والد المخطوبتين أن يزوج إحداهما من دون الأخرى، ويفسخ الفاتحتين معا، وبذلك يستريح ضمير عاشور ويتحقق مراده معا، لكنه يستحق وأسرته توبيخا مناسبا من الفتوة: «إنكم أنذال يا آل الناجى»!. «٥٢٩»

الفاتحة ليست لهوا وعبثا، فهى «عقبة كالحة»، وعاشور يبدو «مغلوبا» وهو يحافظ على فاتحته، التى يدرك مدى قوتها وأهميتها، والفتوة نفسه يترجم خطورة النكوص بأسلوبه الخاص، متهما المتراجعين بالنذالة!.

فتوات وأغنياء

المفارقة العجيبة بحق، نجدها فى قصة «الخوف»، مجموعة «بيت سئ السمعة». فاتحة بدرية فى «عصر الحب»، وفتحية وشكرية فى «الحرافيش»، لا تتجاوز، فيما تثيره من مشاكل، الإطار الذاتى الضيق الذى يمس أفرادا معدودين محددين، أما «قضية» فاتحة نعيمة بنت الليثى، فى قصة «الخوف»، فهى معقدة وتهدد مصير حارة كاملة.

البنت جميلة، ويرشحها جمالها، متعانقا مع فقرها، لزيجة عادية تبدأ كالمألوف بقراءة الفاتحة: «وما لبث أن قرأ عم الليثى العجوز الفاتحة مع شاب بياع بطاطة يدعى الحملى». «٨٩»

لا جديد ولا مثير، فمن المنطقى أن تتزوج ابنة بائع الكبدة من بياع البطاطة، لكن الغرابة تبدأ بتدخل «الأعور» الفتوة، وإظهاره الطمع فى نعيمة، مما يجبر الأب على قراءة فاتحة جديدة معه، ذلك أنه لا يقوى على رفض الفتوة: «مددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت معه الفاتحة!.

– وفاتحة الحملى؟

– قابلته واعترفت له بوكستى»!.

تراجع مبرر، فلا مجال للمقارنة بين بياع بطاطة وفتوة خطير، وفسخ الفاتحة الأولى مما يسهل غفرانه فى ظل موازين القوى، لكن الكارثة التى تتجاوز الأب وابنته إلى الحارة كلها، تبدأ مع ظهور فتوة آخر، والاضطرار إلى قراءة فاتحة جديدة:

«- بعد فاتحة الأعور بساعتين وجدت جعران فتوة الحلوجى أمامى..

- ثم اضطررت أن أعترف له بفاتحة الأعور.

- ومددت يدى وأنا لا أدرى وقرأت الفاتحة.

- وفاتحة الأعور؟

- هذه هى المصيبة فأغيثونى». «٩١»

فاتحة الحملى يمكن التخلى عنها بلا لوم أو عتاب اجتماعى، أما فاتحتا الفتوتين فالتراجع عنهما خطر يهدد الحارة، ويمثل الخط الرئيس فى بناء القصة وتطور أحداثها. لا مجال لإرضاء الفتوتين معا، ولا قدرة على الاختيار بينهما!.

ضاع الحملى وتبخرت فاتحته بسبب قوة منافسيه الخطيرين، أما عباس الحلو، فى «زقاق المدق»، فقد أوشكت فاتحته أن تتبخر بسبب ثروة منافسه السيد سليم علوان. رضيت حميدة بعباس، دون حب أو اقتناع حقيقى، لأنه

الأفضل نسبيا وإن لم يرق إلى مستوى طموحها. مشروع زيجة تقليدية، تنتهى خطوتها الأولى بقراءة الفاتحة وشرب الشربات. «١٠٣»

يسافر عباس للعمل فى معسكرات الإنجليز، ويبقى السيد سليم علوان فى الزقاق يدير وكالته. أيهما أحق بالفتاة: الشاب الذى قرأ الفاتحة واغترب ليوفر تكاليف الزواج، أمام العجوز صاحب الثروة المقيم؟!. عباس هو الأولى بمقاييس المنطق والعرف والارتباط الذى تمثله الفاتحة، وسليم هو الأقوى بفضل الثروة الطائلة والمكانة الاجتماعية. ما أن يعلم الرجل بـ «خبر» الفاتحة من أم حميدة، حتى يصفر وجهه غضبا، ويقول بحدة كأنه ينطق باسم حشرة قذرة:

«- عباس الحلو!

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة:

- رباه لقد قرأنا الفاتحة.

قطب السيد سليم قائلا فى غضب وازدراء:

- ذلك الحلاق الشحاذ..

فقالت أم حميدة كالمعتذرة:

- قال إنه سيشتغل فى الجيش، ليجمع ثروة، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة». «١٣٤»

حدة الرجل وغضبه، ثم ارتباك المرأة واعتذارها، مما قد يوحى بخطأ عباس وجرمه. قوانين المنفعة والمصلحة، دون نظر إلى أعراف وقيود المجتمع، هى التى تدفع أم حميدة إلى التراجع السريع واستبعاد ابنتها

بالتبنى من الأمر كله: «لا شأن لابنتى بهذا الأمر! وما حدث لا يعدو أن جاءنى الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة». «١٣٥»

إنها تهون من شأن قراءة الفاتحة، وكأنها ليست مرادفا عرفيا للخطبة. ثروة سليم تتفوق على الشاب المكافح والفاتحة المقروءة، لكن تراجع أم حميدة لا يعنى زوال المشكلة، أو الموافقة النهائية على العرض الذى يتقدم به التاجر الثرى، فالمسألة وثيقة الصلة بالأعراف والتقاليد، التى تختلط مع القداسة الدينية للفاتحة، بحيث يمثل الاختيار هما شكليا للمرأة الشعبية.

لا تهتم حميدة بالفاتحة المقروءة اهتمام أمها، فالفتاة الطموحة المتمردة تتساءل باستنكار، كأن ما تطرحه الأم قضية بالغة البساطة والتفاهة: «ماذا أرى؟!»، وترد أمها متشبثة بالسؤال، وملحة على فكرة الارتباط: «أجل ماذا ترين، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه، أنسيت أنك مخطوبة؟!.. وإنى قرأت الفاتحة مع الحلو؟». «١٣٩»

السيد رضوان الحسينى، كبير الزقاق وأهم أعيانه، هو الأكثر ورعا وإدراكا لخطورة الأمر، وعندما تستشيره أم حميدة يرفض بإصرار أن تفسخ الخطوبة، وهو موقف تفسره حميدة بما يتوافق مع مصلحتها: «فسعادتى أنا لا تهمه فى كثير أو قليل، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغى لرجل يرسل لحيته مترين»!. «١٤٢»

إنها تفسر موقفه الرافض، الذى تراه متشددا ومتعنتا، بتدينه ولا مبالاته بسعادتها، وتغفل أن القاعدة الاجتماعية السائدة، كما تتجلى فى حيرة أمها غير المتدينة، ترفض إهانة الفاتحة المقروءة وتجاوزها!.

الاستهانة بالفاتحة

لا يوجد خلاف حقيقى بين حميدة وأمها، لكن أم حميدة تبدو حريصة على إظهار رأيها المعارض، كأنها تؤدى واجبا شكليا، من دون نية حقيقية فى المعارضة العملية وعرقلة «المشروع» الجديد الذى سيعود بالخير عليها!، وهى تقول مدفوعة برغبة فى «إغاظة»، الفتاة والانتقام من سوء خلقها:

«- ولكنك مخطوبة..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت:

- إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة!

- والفاتحة؟

- المسامح كريم..

- الفاتحة ذنبها كبير.

فصاحت باستهانة:

- بليها واشربى ماءها!». «١٤٢»

ها هى حميدة تنتبه إلى ما أباحه لها الدين من حرية الاختيار، وها هى تتنصل من الكلام والبسبوسة والفاتحة!. الرأى العام تمثله الأم، غير الجادة، فى حديثها عن «ذنب الفاتحة»، أما المصلحة الشخصية

فتجسدها حميدة، مستهينة إلى الدرجة التى تدفعها إلى السخرية من الفاتحة!.

يحسم الأمر، وتذهب أم حميدة عند ضحى اليوم التالى لتقرأ الفاتحة: «مرة أخرى». «١٤٣»

لم يفسد «المشروع الجديد» والفاتحة الجديدة، إلا مرض التاجر الثرى وإلغاء الفكرة من أساسها!.

لا يشغل الحديث عن الفاتحة الجديدة، التى لم تتم، بين سليم وحميدة، على أنقاض الفاتحة الأصلية، إلا صفحات قليلة من الرواية «١٣٤-١٤٣»، لكنها صفحات معبرة خير تعبير عن الدور الذى تقوم به الفاتحة، لمزيج من الأسباب الدينية والاجتماعية، فى الزواج المصرى الشعبى، وهى صفحات كاشفة، من ناحية أخرى، عن طبيعة شخصيات ساكنى الزقاق، كما ينعكس فى أسلوب تعاملهم مع الفاتحة: رضوان الحسينى وورعه، سليم علوان وشهواته، حميدة وطموحها غير المحدود، الأم وطمعها، عباس الحلو الغائب المظلوم دائما!.

قراءات غرائبية

ثمة وجوه غرائبية أخرى لقراءة الفاتحة، بنية الزواج، فى عالم نجيب محفوظ. من ذلك أن تقرأ الفاتحة فى حالة سكر بين يغيب فيه الوعى، كما يفعل المعلم جعدة فى قصة «نحن رجال»، مجموعة «همس الجنون». فى ذروة السكر، يقول جعدة بلسان ملتو: «نحن رجال.. الرجل بغير زواج

ناقص.. الزواج فرض وسنة، شلبية المصونة بنت عم طلبة جارنا وعمنا.. يا عم طلبة اقرأ الفاتحة». «١٧٠»

فاتحة بين السكارى، والخاطب والمخطوب منه والشهود الذين يهللون للخبر، لا يعون شيئا!.

وتتحول الفاتحة إلى «مشروع استثمارى»، من ولى الأمر الذى لا يبالى بالمصلحة والاستقرار، قدر اهتمامه بالعائد المالى السريع!.

للزواج من مروانة، فى «قلب الليل»، يتوجه جعفر الراوى إلى كبير قومها وولى أمرها، وهو طاعن فى السن حتى الموت. لا يتحدث العجوز سليل الإجرام عن التفاصيل والمؤهلات، لكنه يقول:

«- عشرة جنيهات فى يدى هذه.

وبسط يده، فتحركت أم مروانة حركة غامضة، فقطب العجوز قائلا:

- بلا جهاز.

ويقول جعفر الراوى:

- لنقرأ الفاتحة.

وانطلقت الزغاريد». «٧٥»

لا أهمية للأصل والعمل والأخلاق، فالبطولة الوحيدة للجنيهات العشرة، وتأتى الفاتحة بلا تأخير بعد دفع الثمن!.

والمصلحة المادية أيضا هى التى تقف وراء زواج المعلم شمس الدين، فى «الحرافيش»، من ابنة الفتوة سمعة الكلبشى. شمس الدين يبحث عن الحماية، والفتوة يتطلع إلى أموال العريس. السؤال الأول، والوحيد، يتعلق بالمهر المدفوع، وبعد تحديده بخمسمائة جنيه، يمد الفتوة يده قائلا: «لنقرأ الفاتحة». «٤٧٥»

أهى فاتحة تقرأ من أجل توثيق ومباركة الزواج غير المتكافئ، أم أنها فاتحة تمهد لتدشين مشروع وصفقة؟!.

أما الوجه الغرائبى للفاتحة، عند كمال عبد الجواد فى «قصر الشوق»، فيتمثل فى تصوره لوجود مفارقة بين شخصية عايدة وثقافتها من ناحية وما يمارس من طقوس عند زواجها من ناحية أخرى: «وباسم الحب تغدو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب». «٢٨٦»

لا غرابة فى زواج عايدة شداد، المسلمة، وفق قواعد وأصول الشريعة الإسلامية، وكمال العاشق وحده هو الذى يبحث عن تناقض بين الثقافة الباريسية والشيخ والفاتحة!.

ولعل أطرف ما يتعلق بالفاتحة، من حيث ارتباطها بالزواج، هو ما نجده فى قصة «نور القمر»، مجموعة «الحب فوق هضبة الهرم»، حيث يقترح الفتوة سنجة الترام على الضابط المتقاعد أنور عزمى أن يتزوج، وبعد أيام من اقتراحه، الذى لم يجد استجابة وقبولا، يقوم بزيارة أنور فى منزله، ويسأل ببرود:

«– ومتى تفى بوعدك؟

– أى وعد يا معلم؟

– ألم نقرأ الفاتحة؟»

وإذا يحملق فيه الضابط بذهول، نابع من حقيقة أنه لم يلتزم بشىء ولم يقرأ الفاتحة، يقول الفتوة مستدركا:

«– قرئت بالقلب، أم وجدتنا دون المقام؟!». «٢٦»

لا وعد من الضابط بالموافقة على الزواج، تصريحا أو تلميحا، ولا فاتحة مقروءة، لكن الفتوة يضيف جديدا غير مسبوق، وهو القراءة السرية بالقلب دون اللسان!.

الترحم على الموتى

للفاتحة ارتباطها الوثيق بالموت، ذلك أن الأحياء يقرأونها كثيرا ترحما على أرواح موتاهم.

قد تتم قراءة الفاتحة فى مواجهة جثمان الميت مباشرة، كما يفعل صابر سيد الرحيمى، فى «الطريق»، مع أمه: «أنا لم أر ميتا قط، حتى جثة أمى أغمضت عينى وأنا أقرأ عليها الفاتحة». «١٣١»

الأكثر انتشارا، فى عالم نجيب محفوظ، هو قراءة الفاتحة على القبور عند زيارة الموتى، وهى الزيارات التى يداوم عليها الأحياء، ويلتزمون بها فى مواعيد بعينها.

من ذكريات الطفولة التى يستدعيها كامل رؤية، فى «السراب»: «موقفنا – أنا وأمى – على قبر جدتى فى المواسم تكلله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترحمين». «٢٠»

وإذا كان كامل يشارك أمه فى قراءة الفاتحة، ويكتسب منذ طفولته تقليدا دينيا اجتماعيا، فإن عثمان بيومى، فى «حضرة المحترم»، بعد توظفه، يقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها، ويقرأ الفاتحة. «٢١»

وفى قصة «الخندق»، مجموعة «التنظيم السرى»، يتحول مدفن الأسرة إلى مسكن للأغراب، ويقنع المالك الشرعى بالمروق إلى قبر والديه ليتلو الفاتحة. «١٧١»

الآباء والأمهات فى القبور والقلوب معا، والفاتحة تنطلق من قلوب الأحياء المحبين لتشارك الأحبة الساكنين فى القبور وحدتهم، وتبعث إليهم برسالة الرحمة والمودة.

لا يملك المرء أن يعوض والديه ويستبدلهما، لكن تعويض الزوج متاح وميسورا.

فى قصة «إصلاح القبور»، مجموعة «همس الجنون»، تواظب الأرملة على زيارة قبر زوجها الراحل فى إخلاص ودأب، وبظهور زوج جديد يتراجع الاهتمام، ويتغير «مكان» قراءة الفاتحة: «وقرأت هذه المرة الفاتحة على البعد. وقالت لنفسها: إن البعد لن يمنع رحمة الله من أن تؤنس الثاوى فى قبره». «٦٤»

الهدف من القراءة إذن هو مؤانسة الموتى، وعند الأرملة المهيأة لزواج جديد، تنتصر الحياة ويفوز الحى على الميت، ويتغير «مكان» قراءة الفاتحة من «القبر» إلى «القلب»!.

حب وموت

تلعب قراءة الفاتحة، أثناء المرور على القبور، دورا مهما فى بناء رواية «خان الخليلى» وتشكيل طابعها الشجنى، من خلال علاقة الحب التى لم تكتمل، بسبب المرض والموت، بين رشدى عاكف وجارته نوال.

تتوثق العلاقة بينهما فى رحلتهما اليومية إلى المدرسة، والطريق إليها يحتم المرور على المقابر: «وأشار رشدى إلى مقبرة خشبية ذات فناء صغير، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال:

– مقبرتنا!

فنظرت الفتاة إلى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة:

– فلنقرأ إذن الفاتحة!

وقرءا الفاتحة معا». «١٥٦»

«باسمة» وهى تقترح قراءة الفاتحة، لأن الحب، وليس الموت والموتى، هو ما يشغلها ويدفعها إلى الاقتراح والتنفيذ، وقراءة الفاتحة على من لا تعرفهم من الموتى، إنما يتم لحساب الحبيب الحى، والمستقبل، من دون أهله الموتى، الذين يجسدون الماضى!.

يأتى المرض بأعبائه ومتاعبه، فيتعثر انتظام الرحلة اليومية المشتركة، ويتخلف رشدى عن مصاحبتها، وعندما تعود المسيرة ويمران بالمقبرة، تقول الفتاة لحبيبها، وكأنها تذكره بالتاريخ القريب وذكرياته: «أنتم مدينون لى بمائة رحمة على الأقل، لأننى أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كل صباح!». «٢٠٣»

لمن تقرأ الفاتحة؟!. للحبيب الغائب بالمرض، وليس لأهله المغيبين بالموت!. الحياة هى الدافع للقراءة والترحم.

رشدى عاكف، متأثرا بمرضه وهواجسه، يتعامل مع المسألة على نحو آخر: «ثم امتد بصره إلى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموتى، هل يجرى القضاء غدا بأن تقرأ فتاته – وهى آخذة طريقها هذا – الفاتحة على روحه هو؟!». «٢٠٣»

نوال تحب وتلهو وتتطلع إلى الحياة والمستقبل، فى إطار مرح تتخلله الفاتحة، أما رشدى فيغيره المرض، وتؤثر عليه فكرة الموت، فتدفعه إلى التعامل بجدية، والتفكير فى المستقبل الذى يرقد فيه داخل المقبرة التى يمران عليها، والتساؤل عن موقف فتاته منه ساعتها، وهل تقرأ على روحه الفاتحة؟!.

مع استفحال المرض، تنقطع النزهة اليومية التى تمر بالعاشقين على القبور، ويكون آخر العهد برشدى فى علاقته مع القبر ومداعبته لنوال، وهو ما راوده من هواجس حول الموت ومدى وفاء نوال له!. وهكذا تتحول مقبرة آل عاكف من أداة للمرح والتعبير عن الحب، إلى مؤشر للتدهور والسقوط.

المؤكد أن نوال قد مرت على المقبرة بعد موت رشدى ودفنه فيها، لكن الرواية لا تكشف عن موقفها الذى لا يحتاج توقعه إلى جهد كبير، فالحياة بأحيائها وصخبها تنتصر دائما.

ليس محتما أن تُقرأ الفاتحة فى مواجهة الموتى وقبورهم، فمن الممكن أن تقرأ على البعد، كما تفعل الأرملة المهيأة لزواج جديد فى قصة «إصلاح القبور».

وفى «السراب»، يتذكر كامل رؤبة لاظ جده وأيام الرغد والهناء التى قضاها معه، فيقرأ الفاتحة، وهو فى الترام، على روحه المحبوبة. «١٦٤»

وفى زيارة أحمد عبد الجواد وابنيه، ياسين وكمال، لمسجد الإمام الحسين بعد انقطاع طويل، فى «قصر الشوق»، يقول الأب: «لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم»، مشيرا بذلك إلى آخر اجتماع لهم أثناء ثورة ١٩١٩، بحضور ابنه الشهيد فهمى، ويرد ياسين بتأثر: «الفاتحة على روح فهمى..

- تليت الفاتحة». «٤٥٥»

فى الترام وفى المسجد، تقرأ الفاتحة على روحى الجد والشهيد، وتؤنسهما الفاتحة على البعد، دون مواجهة مباشرة للقبر.

فى «السراب» و «قصر الشوق»، تحديد واضح لشخصيتى المرحومين المقصودين بالفاتحة، وفى مواضع أخرى تكون الفاتحة موجهة إلى جموع تتجاوز الفرد الواحد المحدد.

فى «ليالى ألف ليلة»، تتوالى التعليقات فى «قهوة الأمراء»، بعد إعلان السلطان شهريار عن توبته وتوقفه عن سفك دماء العذارى والمعارضين لسياسته الديكتاتورية، وأول هذه التعليقات: «الفاتحة على أرواح الضحايا». «١١»

ليس شخصا بعينه هو المقصود بقراءة الفاتحة، لكن «كل» الضحايا الذين فتك بهم الطاغية.

الروح الشعبية

وقد تكتسب الدعوة إلى قراءة الفاتحة «تلميحا» ينفى الهدف الشائع من القراءة.

الشيخ عفرة، فى «الحرافيش»، صاحب فضل على عاشور الناجى، أما درويش فهو على النقيض من أخيه الشيخ الراحل. شرير لا مروءة فيه، ولا يتورع عن طلب نقود من عاشور، يأخذها غير شاكر، قائلا بنبرة ذات مغزى:

«- لنقرأ الفاتحة على روح أخى عفرة.

يقرأ عاشور الفاتحة، ويقول:

- لم أنقطع عن زيارة قبره». «٢٩»

لا يترحم درويش على روح أخيه، بالدعوة إلى قراءة الفاتحة، لكنه يذكر عاشور بفضل الرجل عليه. عاشور يسايره فى القراءة، ويعود ليؤكد أنه لم ينس الفضل، ويعرف أغراض درويش وألاعيبه!.

الارتباط الوثيق بين الفاتحة والموت، هو ما يجعل الفاتحة جزءا من تكوين شعبى شائع يعنى اقتراب الموت، فمعنى «اقرأ الفاتحة على روحك»، أو «سنقرأ الفاتحة على روحك»، أن الموت قريب. هذا ما نجده بعد انتصار الضابط عثمان على الفتوة جعران، فى المعركة الثنائية التى تقدمها قصة «الخوف»، مجموعة «بيت سئ السمعة». يتراجع الأعوان، ويصيح بعضهم فى وجه الضابط: «قريبا سيقرأون على روحك الفاتحة!». «٩٦»

الترجمة الحرفية: «إنك لن تفلت بفعلتك، وستموت، وتقرأ الفاتحة على روحك بعد موتك!». هل تقتصر الحياة المصرية على الأحياء والموتى فقط؟!. ثمة فريق ثالث ينتمى إلى الموتى والأحياء معا، ونعنى بذلك الأولياء من أصحاب الأضرحة. هم أموات، لكنهم يمارسون من التأثير ما يفوق ملايين الأحياء، وقراءة الفاتحة لهم، وفى حضرتهم عند زيارتهم، من التقاليد الشعبية الراسخة الموروثة.

الفاتحة والأولياء

للسيدة زينب وجودها المؤثر فى حياة كامل رؤبة، فى «السراب»، وهو يتعامل معها كشخصية حية، تعرف عنه كل شىء، حتى ما يخفيه فى أعماقه من أسرار وآثام. وفى زيارات كامل المتعددة لضريحها، مع أمه أو بمفرده، تظهر الفاتحة دائما.

يذهب للزيارة مع أمه، تائبا عن معصيته بشرب الخمر: «ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة». «١٢٦»

وفى سياق مختلف يزورها بمفرده، فيطوف بالضريح قارئا الفاتحة. «٢٧٨»

والدور الذى يلعبه الإمام الحسين، مسجدا وضريحا، فى حياة كمال عبد الجواد وأمه أمينة، عبر أجزاء «الثلاثية» جميعا، والملايين غيرهما من المسلمين فى كافة العصور، لا يختلف عن دور السيدة زينب فى حياة كامل.

فى طفولته، التى تعبر عنها «بين القصرين»، لا ينقطع كمال عن المرور بمسجد الإمام الحسين فى الصباح والمساء: «لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات فى اليوم الواحد». «٤٨»

وعندما تقوم أمينة بمغامرتها الكبرى، فتزور المسجد فى غياب زوجها وبدون إذنه، لا تتطلع ابنتها خديجة إلى مصاحبتها فى الزيارة، وتقنع بالقول: «الفاتحة أمانة». «١٦٠»

وأثناء الزيارة، يشترك كمال وأمه فى قراءة الفاتحة أمام الضريح. «١٦٣»

وإذا كانت خديجة تحمّل أمها «أمانة» قراءة الفاتحة فى الحسين، فإن الأم بدورها تكلف ابنها كمال بالمهمة نفسها، فى زيارته الأسبوعية للضريح، بعد صلاة الجمعة بصحبة أبيه وأخويه. يتطلع كمال ملهوفا إلى «ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة أصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعدها». «٣٩٣»

وفى «السكرية»، بعد أن تتحرر أمينة بفعل متغيرات الزمن، وتتاح لها الزيارة كما تشاء، فإنها تقترح على ابنتها المنكوبة عائشة أن تزور الحسين معها: «ضعى يدك على الضريح واتلى الفاتحة تتحول نارك إلى برد وسلام». «٢٣٤»

وأحمد عبد الجواد أيضا، فى الرواية نفسها، لا يدخل مسجد الحسين إلا وهو يقرأ الفاتحة. «١٦٩»

كامل رؤبة وأمه، فى «السراب»، وكمال وأمينة وخديجة وأحمد عبد الجواد، فى «الثلاثية»، يؤمنون بمكانة السيدة زينب والإمام الحسين، ويتعاملون معهما كأحياء مقدسين قادرين على بث السلوى وتعويض الحرمان. ليست قراءة الفاتحة فى المسجد والضريح، إلا التحية الواجبة المتوافقة مع عظمة وجلال ساكنى الضريحين.

لا مخالفة لروح الدين، بمفهومه الشعبى، فيما يفعلون، لكنه التعبير البسيط العفوى عن الإيمان والاحترام والحب.

لا تخلو حياة كامل وأحمد عبد الجواد من أخطاء وخطايا وشرور وذنوب، وكمال يتخلى عن إيمانه بالدين بعد تجاوز الطفولة، وأمينة وخديجة وزينب – أم كامل – بلا ثقافة دينية حقيقية، لكنهم – فى ممارستهم لقراءة الفاتحة – لا يدعون ولا يفتعلون ولا يكذبون.

ربما يكون الأمر أقرب إلى العادة الاجتماعية، التى تكتسب مزيدا من الرسوخ بما يخالطها من روح دينية، والتاجر الثرى عزيز الناجى، فى

«الحرافيش»: «من عادته صباحا أن يمضى بالدوكار إلى الحسين فيقرأ الفاتحة ثم يميل إلى السكة الجديدة فالصاغة فالنحاسين ثم ينتهى إلى المحل». «٣٢٥»

عادة تشحن الروح، وتمثل طقسا يوميا لا ضرر فيه، لكن الخطير بحق هو الاستغناء بالأضرحة وساكنيها وقراءة الفاتحة عن التعاليم والفروض الدينية جميعا!.

حامد عمرو عزيز، فى «حديث الصباح والمساء»، يستسلم لأمه وطقوسها، ولأخيه وشطحاته: «ثم يجول فى ربوع الصبا ويزور الحسين قارئا الفاتحة، وكان ذلك يمثل الغاية والنهاية فى حياته الدينية». «٥٩»

الخلل أن تقتصر العقيدة الدينية على زيارة الأضرحة والاستسلام للرقى والخرافات وقراءة الفاتحة للحسين، أما الزيارة والقراءة مع ممارسة الشعائر والفروض، فشىء آخر لا خلل فيه ولا انحراف.

دعاء ومقاومة

الفاتحة وسيلة ناجعة لتحقيق الأحلام والأمنيات، ومواجهة المتاعب والكوابيس. وبقدر تعدد الأحلام وتنوعها، فإن الكابوس الوحيد الذى تظهر فيه الحاجة إلى الفاتحة، هو العفاريت!.

فى «خان الخليلى»، تلوح مصحة الأمراض الصدرية فى حلوان، التى يقصدها رشدى للعلاج، فيقول أحمد لشقيقه المريض بالسل: «الفاتحة

إن ربنا يأخذ بيدك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر». «٢١٠»

بركة الفاتحة لمواجهة المرض الصعب المهلك، وبركتها، فى «حديث الصباح والمساء»، لمرادوة النسيان والتخلص من أوجاع الفراق بعد الموت، وهو ما يتجسد فى قول عمرو أفندى لابنه قاسم، عظيم التأثر بوفاة ابن شقيقته:

«- اقرأ الفاتحة يبرد قلبك». «١١»

قراءة الفاتحة لن تغير الأقدار بطبيعة الحال، لكنها وسيلة يتذرع بها الإنسان لطلب الرحمة واللطف من الله. على الرغم من قراءة الفاتحة، يموت رشدى ويعجز قاسم عن النسيان، لكن الفوائد المعنوية للفاتحة لا تنتهى.

بالفاتحة تستعين أمينة، فى «بين القصرين»، عند استيقاظ كمال المفاجئ والأسرة تتحدث حول فراشه، بعد إقامة الإنجليز لمعسكرهم قرب البيت: «فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة». «٣٢٥»

الفاتحة وسيلتها المتاحة لبث الطمأنينة وتحقيق الأمان لطفلها، أما فى الحكاية رقم «٤٩» من «حكايات حارتنا»، فيحلم كل صغير فى الحارة أن يطوف به فى منامه زائر الليل، ويقول لهم الكبار فى ليالى المواسم والأعياد: «استحم وادخل فى فراشك فاقرأ الفاتحة وتمن ما تشاء واستسلم للنوم فربما أسعدك الحظ بمجئ زائر الليل ليحقق لك أمانيك». «١١٠»

قراءة الفاتحة بعد الاستحمام وقبل التمنى، وبتوسطها هذا تستطيع أن تحقق المأمول، الذى لا يتحقق أبدا!.

الفاتحة وسيلة للتفاؤل بالمستقبل، والمراهنة على ما فيه من خير يعوض كآبة الواقع، ولذلك تقرأ بنية صادقة، والواقع بتفاعلاته هو الذى يحسم.

خديجة عبد الجواد، فى «بين القصرين»، تقرأ الفاتحة فى سرها قبل أن تدخل على الزائرات، اللاتى تعتقد أنهن جئن لخطبتها». «١٤٣»

والجنود الإنجليز فى الرواية نفسها، يقمعون المظاهرات الوطنية ويسببون الرعب ويجلبون الموت فى ثورة ١٩١٩، لكن العلاقة الإنسانية لكمال الطفل ببعضهم، تدفعه إلى تمنى السلامة لهم: «يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة». «٤١٤»

لا يشفى رشدى، ولا يسلو قاسم، ولا يطمئن كمال، ولا يطوف زائر الليل بالأطفال، ولا تخطب خديجة، ولا يعود كل الجنود الإنجليز سالمين؛ لكن الفاتحة تبقى دائما سلاح من لا سلاح له. ما الذى يملكه أحمد عاكف وعمرو أفندى وأمينة وأطفال الحارة وخديجة وكمال؟!. ولا شىء غير قراءة الفاتحة لمراودة الأحلام والأمنيات التى يعز تحقيقها فى الواقع المتجهم الكئيب. لا تخيب الفاتحة ولا تخذل قارئيها، لكن التحديات من الصعوبة بما يتجاوز أحلام الحالمين!.

وعندما يشتد الحزن، ويسيطر الذعر، تظهر الحاجة الملحة إلى قراءة الفاتحة.

جعفر الراوى، فى «قلب الليل»، يحفظ «قل هو الله أحد»، ولا يحفظ الفاتحة!. وإذ يسأله جده، العالم الأزهرى الجليل، عن السبب، يقول فى بساطة تبرر تقديمه للصمدية: «لفائدتها فى إخضاع الجن»!. «٣٣»

لا يرى جعفر فائدة للفاتحة فى إخضاع الجن ومواجهة العفاريت، والعكس صحيح عند أمينة وكمال فى «بين القصرين»، فالأم وابنها يراهنان دائما على قدرة الصمدية، لكنهما لا يغفلان أهمية الفاتحة.

لا مغيث لأمينة من الشياطين، وهى وحيدة فى البيت الكبير، إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية. «٧»

ويحذو الطفل كمال خطى أمه فى الاستعانة بالفاتحة لمقاومة الجن والعفاريت، وهو يلعب دور المرشد لأمينة عند اصطحابه لها فى رحلتها الأولى لزيارة مسجد الإمام الحسين، فيشير أثناء سيرهما إلى قبر قرمز: «الذى يجب – قبل الدخول فيه – تلاوة الفاتحة، وقاية من العفاريت التى تسكنه». «١٦١»

للفاتحة دورها فى مقاومة الجن والعفاريت. قد تكون الصمدية هى الأكثر أهمية، لكن الفاتحة تقاوم أيضا وتفيد!.

الفاتحة والفكاهة

للفاتحة نصيب من الفكاهة، التى يذخر بها عالم نجيب محفوظ. أول ملامح هذه الفكاهة نجدها عند حسن كامل على، فى «بداية ونهاية»،

وهو شاب مستهتر تلقى تربيته فى الشارع، ولا علاقة له بالدين والسلوك السوى، لكنه يحفظ الفاتحة!. الطريف أن مقامرته مع أصحابه، الذين يماثلونه فى الانحراف ومخاصمة الالتزام الأخلاقى، تبدأ عادة بقراءة الفاتحة لمنع الغش والغدر!.

حسن هو الأكثر فوزا وربحا، لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينيه من ناحية أخرى. لهذا يقول أحدهم قبل الشروع فى لعب الورق:

«- لا نريد غشا..

فقال حسن:

- طبعا..

فقال الشاب:

- فلنقرأ الفاتحة..

وقرءوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة»!. «٣٣»

ما يقوله أحدهم عن قراءة الفاتحة يخلو من الفكاهة العمدية، فهو يتحدث جادا، لكن الموقف كله مشحون بالمفارقة والغرابة، التى تدفع الروائى إلى التعليق الساخر الكاشف عن طبيعة الشاب المستهتر ورفاقه، الشاب الذى لم يحفظ الفاتحة إلا حول مائدة القمار!.

يختلف الأمر بالنسبة لشلة أخرى، فى «قصر الشوق»، مكونة من كمال عبد الجواد، فى مرحلة إيمانه الدينى، والأشقاء حسين وعايدة وبدور،

الذين لا يظهرون أدنى اهتمام بالدين وتعاليمه، فى المأكل والمشرب والسلوك.

يلتقى الأصدقاء للقيام برحلة يزورون فيها الأهرام، وفى الطريق يقول حسين شداد مداعبا:

«- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول.

ويرد كمال ضاحكا:

- لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية». «١٩٧»

لا يخلو تعليق كمال الضاحك من طرافة وسخرية، لكنه يبدو متناقضا مع شخصية الشاب المتدين إلى درجة الصرامة والتزمت. وعندما يصدر التعليق نفسه من شخصية هشة العلاقة بالدين، فإن الغرابة تزول. فى رحلة مماثلة تقدمها «ثرثرة فوق النيل»، يقول الممثل السينمائى رجب القاضى: «نحن نزور الأن قرافة فرعونية قديمة فلنقرأ الفاتحة». «١٤٥»

التعليق واحد تقريبا، لكن التأثير مختلف. المقولة لا تتناسب مع كمال، وتتوافق تماما مع رجب.

فى الممارسات الجادة، تقرأ فاتحة الكتاب ترحما عند المرور بالمقابر، وفى السياق الفكاهى، الذى لا يخلو من خلل بالنسبة لكمال، يأتى الاقتراح الساخر المستحيل: أن تقرأ الفاتحة باللغة السائدة فى عصر الأجداد القدامى، وأن يتم الترحم عليهم بالفاتحة وهم غير مسلمين!.

من القمار ومقابر الأجداد القدامى، إلى الاتفاق والوفاق الجنسى بمعزل عن الزواج الشرعى!.

قراءة الفاتحة مقدمة للزواج الشرعى الرسمى كما أشرنا من قبل، والفاتحة نفسها مدخل للسخرية وتفجير الفكاهة عندما يكون التفاوض حول الاتصال الجنسى وحده، دون زواج وإشهار وشرعية!.

فى «بين القصرين»، لا يرغب ياسين أحمد عبد الجواد فى الزواج من زنوبة ربيبة العوالم، وإن يكن قد تزوجها فى مرحلة تالية، لكنه يروم «اللقاء»!. ما اللقاء؟!. إنه ما تشرحه زنوبة نفسها فى مزيج من المرارة والسخرية، النابعين من الوعى بقوانين الحياة وشهوات الرجال: «الواحد منكم يطلب بكل بساطة اللقاء.. كلمة صغيرة.. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون». «٢٣٣»

ما يطلبه ياسين من زنوبة ليس إلا امتدادا لما يسعى إليه الأب ويحصل عليه، فى الرواية نفسها، من السلطانة أستاذة زنوبة. الأب أكثر جرأة واقتحاما وسخرية، على الرغم من يقظة ضميره الدينى، فى حواره التمهيدى مع المرأة المرشحة لمرافقته، فهو يستغفر فى سره «مقدما»، ثم يتساءل فى دعابة: «نقرأ الفاتحة؟». «٢٧٨»

يستغفر الله «مقدما» لأنه يعى ذنبه، ويعرف أن الفاتحة أجل مقاما من أن

تقرأ تهكما، فى سبيل «الحرام» وغير الشرعى، لكنه الوعى أيضا بضرورة المرح، والإصرار على التشبث بالدين والدنيا معا!.

فى السياق نفسه، يبدو الغلام رسول الغرام بين حسن كامل وسناء، فى «بداية ونهاية»، حريصا على طلب الدعاء ذى المغزى الجنسى، متكئا على الفاتحة. يصل بحسن إلى غرفة العاهرة: «ودفع الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن إلى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

- اقرأ لنا الفاتحة». «١٢٧»

إذا كان طلب قراءة الفاتحة، فى الجاد من الأمور، يستهدف رغبة الوصول وتخطى الصعاب، بفضل بركة فاتحة الكتاب، فلا بأس عند الغلام الناشىء من طلب مخالف، يستهدف طموحا آخر، يتوافق مع طبيعة واقعه وحدود أحلامه.

الحمد لله رب العالمين

على الرغم من أهمية الدور الذى تلعبه الفاتحة، فى عالم نجيب محفوظ، فإنها لا ترد كاملة فى أى من أعماله. كلمة «الفاتحة» تغنى عن نصها،

والآية الوحيدة التى تتكرر كثيرا هى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ذلك أنها تستخدم كجزء من لغة الحياة اليومية، وكتعبير شائع مألوف، لا يقترن عند كثير من مستخدميه بالنص القرآنى.

تستخدم الآية الكريمة للتعبير عن الشكر لله بعد النجاة من مأزق، والخلاص من أزمة، والوصول إلى بر الأمان والسلام، والاستقرار بعد تخبط وحيرة.

فى «ليالى ألف ليلة»، تنتهى ممارسات شهريار الدموية، وتنجو شهر زاد وتنقذ معها بنات جنسها، ويحق للوزير «دندان» أن يشعر بالسعادة، ويبدى الشكر لله، فى قوله لابنتيه شهر زاد ودنيا زاد: «ينوء ظهرى بالسعادة فالحمد لله رب العالمين». «٧»

ويتعرض السندباد، فى الرواية نفسها، لفخ شيطانى، يروى تفاصيله للسلطان شهريار، وبالنجاة يختتم قصته شاكرا حامدا: «فالحمد لله رب العالمين». «٢٥٣»

وتستخدم الآية للتعبير عن الشكر، بعد الاستجابة لطلب عزيز المنال، أو تحقيق أمنية صعبة.

فى «الحرافيش»، يعود سماحة الناجى بعد غياب طويل، ويعبر خضر عن عظيم سعادته، قبل أن يعرف أنها عودة مؤقتة: «طالما حلمت بيوم النجاة.. فالحمد لله رب العالمين». «٢٥٦»

أما شيخ الحارة جبريل الفص، فى الرواية نفسها، فينتشى بنجاح مسعاه، وموافقة زهيرة على الزواج من المأمور، الذى اتخذه رسولا له، ويقول: «الحمد لله رب العالمين». «٢٧٣»

وقد تأتى الآية فى سياق التعبير عن التواضع والزهد، كما يفعل معروف

الإسكافى، فى «ليالى ألف ليلة». يتوهم شهريار أن الإسكافى يمتلك خاتم سليمان ويأبى الاستيلاء على عرشه، فيقول ممتنا: «إنك مؤمن حقا، والخاتم فى يد المؤمن عبادة!»، ويرد معروف: «الحمد لله رب العالمين!. «٢٣٦»

لا يملك معروف الخاتم، ولا يستطيع أن يفعل شيئا، لكنه فى مواجهة المدح لا يتورع عن الإدعاء الكاذب، معتمدا على الآية فى إظهار الإيمان والورع!.

ويرتبط الاستخدام بطبيعة الشخصية ودرجة تدينها، فالسيد رضوان الحسينى، فى «زقاق المدق»، يعلق على ما يقوله سليم علوان من أنه نجا من الموت بأعجوبة، قائلا: «الحمد لله رب العالمين. نجوت بأعجوبة، وتعيش بأعجوبة». «١٧٧»

إنه لا يقنع بترديد الآية كما يفعل غيره، لكنه يشرح ويفسر ويسترسل فى التدليل على ما يستحق الحمد لله.

ومع اقتراب نهاية العمر، يزداد الاستخدام.

فى الظهور الأول للشيخ متولى عبد الصمد، فى «بين القصرين»، يندفع إلى مكتب السيد أحمد عبد الجواد، وهو يتمتم: «الحمد لله رب العالمين». «٣٧»

وفى الحكاية رقم «٢٨» من «حكايات حارتنا»: يصل محسن إلى محطة النهاية بعد حياة حافلة بالتحولات، وبكلماته التى ينهى بها الحكاية والحياة، يعلن رضاه عن مسيرته ونهايته: «لست نادما، أبدا، الحمد لله رب العالمين». «٦١»

وتبدأ قصة «الرجل القوى»، مجموعة «القرار الأخير»، بتقديم بطلها وهو فى نهاية رحلة الحياة: «اعتقد السيد طيب المهدى ساعة من الزمان أن مهمته فى هذه الدنيا قد انتهت، وغمغم فى ارتياح عميق وأسى خفيف.. الحمد لله رب العالمين». «١٣٧»

الآية ممارسة معتادة عند الشيخ متولى عبد الصمد، وموقف من الحياة عند محسن، وتتويج للنهاية المتوقعة عند طيب المهدى. يجمع الرجل فى غمغمته بين الارتياح والأسى، فهو ليس قانعا بالنهاية ومستسلما لها، ومثل هذا النمط يتحقق بتمامه عند أحمد عبد الجواد.

فى «بين القصرين» و «قصر الشوق»، لا يستخدم أحمد الآية، لكنه فى «السكرية»، التى يموت بعد منتصف أحداثها بقليل، يرددها ثلاث مرات. مع النهاية الإجبارية والسكون الاضطرارى، يأتى الاستخدام مشوبا بدرجة من الضجر وعدم الارتياح، ذلك أن عينه على الدنيا، وتشبثه بها لا ينتهى، وأحلامه فى مسراتها لا تخمد.

يتجرع أحمد الدواء بوجه مقطب متقزز، ثم يتمتم: «الحمد لله رب العالمين». «١١»

وفى حوار تتخلله الشكوى مع أصدقاء العمر، يتساءل على عبد الرحيم:

«- ورحمة ربنا؟!

فيرد أحمد على الفور:

- الحمد لله رب العالمين»». «١٧١»

ومع زيادة التدهور الصحى، يعز عليه الخروج إلا يوم الجمعة بصحبة كمال: «ولكن على أن انتظر يوم الجمعة، ثم لابد من العصا، ولابد من كمال ليصحبنى، الحمد لله رب العالمين». «٢٠٢»

أهو الرضا أم الاضطرار؟!. فى نبرة أحمد شكوى واحتجاج وتذمر، وفى حمده الاستدراكى استسلام وخنوع. لا شك فى إيمان الرجل، ولا شك أيضا فى حبه الجارف للحياة. من الإيمان والحب تتشكل ممارسته: شكوى من زوال المسرات، وحمد لاستمرار الحياة!.

نسبية التهلكة

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ «البقرة -١٩٥»

ليس من الحكمة فى شىء أن يلقى الإنسان بنفسه إلى ما فيه هلاكه، لكن السؤال الذى يبحث دائما عن الإجابة المراوغة: ما الحكمة؟، وما التهلكة؟. من الذى يحددهما، وما الدليل اليقينى على صواب التحديد؟!.

الحب والمرض

قصة حب رومانسية حالمة بين رشدى عاكف وجارته نوال، فى «خان الخليلى»، وتتوج العلاقة بما يشبه الخطوبة غير الرسمية. عندما يصاب رشدى بمرض السل، يطرح السؤال نفسه بقوة: هل الحكمة أن تتجنبه نوال؟، وهل التهلكة أن تتمسك به وتغض الطرف عن مرضه الخطير المعدى؟. يستدعى كمال أفندى خليل ابنته، ويقدم لها صورة واقعية وافية عن حالة الجار الحبيب، خاتما بما يشبه الأمر فى صورة النصيحة عن ضرورة هجره: «يؤسفنى أن أصارحك أن الشاب مصاب بالسل، وهو مرض كما تعلمين فظيع، ورحمة الله واسعة، بيد أن على الإنسان واجبا نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه أو يستهين به لأى داع مهما جل شأنه، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء، ولنذكر قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».. :٢٢٧»

على نوال أن تقنع بالدعاء لحبيبها من بعيد، وأن تتجنب المخالطة المؤذية لصحتها، والآية القرآنية الكريمة، التى يختتم بها الأب نصيحته، تُذكر لتأكيد المعنى الذى يراوده ويلح عليه. ألم ينه الله عن طريق التهلكة؟!. أليس أن مرض رشدى «الفظيع» يقود إلى الأذى؟!. لا سبيل إذن، كما يقول النص القرآنى، إلا تجنب ما يقود إلى التهلكة.

ربما لم تقتنع نوال بحكم اشتعال عواطفها، لكنها لا تعارض ولا تجادل، وفى مواقف أخرى يتوارى المرض وتظهر السياسة. كلاهما، المرض والسياسة، قد يفضى إلى الموت، الشبح الذى يسعى الإنسان إلى تجنبه ما أسعفته الحيلة.

حدود الوطنية

فى «بين القصرين»، تشتعل ثورة ١٩١٩، وينغمس فهمى أحمد عبد الجواد فيها. لا تعرف أمه شيئا عن نشاطه الثورى، لكنها تتكلم فى «مجلس القهوة» عن المتظاهرين المتهورين، فى الوقت الذى يتحدث فيه فهمى عن الفئة نفسها باعتبار أنهم من المجاهدين الفدائيين!، ويقع كمال الطفل فى الحيرة التى لا مخرج منها: «كثيرا ما تساءل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدعى أمه متهورون لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة أم هم كما يصفهم فهمى أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم؟!». «٣٤٤»

الأم تتكئ على آية، والابن يلجأ إلى آية أخرى، وبينهما يقف كمال مذهولا عاجزا عن الوصول إلى يقين وحكم نهائى.

يستشهد فهمى، وتتحقق مخاوف الأم التى لم يبق لها إلا كمال، لكن المظاهرات تعود من جديد فى «قصر الشوق»، وتعود معها المخاوف، وتتجدد الأحزان، وتطل العبارة القديمة: «اللهم قنا العذاب، فلنتركهم لغضب القهار، هذه هى الخطة المثلى، أما أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله!». «١٨٥»

ليست أمينة وحدها التى تعرف الخوف على فهمى، وكمال من بعده، وترى الابتعاد عن الخطر، مستشهدة بمعنى الآية القرآنية دون نصها. زوجها أحمد عبد الجواد، فى «بين القصرين»، يمارس التجربة نفسها، ويواجه الابن فهمى فى وضوح أكبر، يكشف عن أهمية النص القرآنى فى الإقناع، بقدر ما يكشف عن خطورة الخطأ فى استدعاء النص الكامل الصحيح، وهو ما يدفع إلى الاستشهاد بالمعنى العام، دون التورط فى الاعتماد على الذاكرة التى لا تسعف دائما.

يشم أحمد رائحة الخطر عندما يوصف فهمى فى مسجد الإمام الحسين بأنه من «المجاهدين»، وسرعان ما يستدعى الابن ليحاوره ويناقشه، محاولا إقناعه بالابتعاد عن المهالك، مسلحا بالآية القرآنية. يهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب: «إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بألا نعرض أنفسنا للتهلكة..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم هذا المعنى، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن إلا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته، فخاف أن يسهو

عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه». «٤٠١»

«معنى» الآية حاضر فى ذهن أحمد عبد الجواد، و «النص» غائب لضعف محفوظاته واقتصارها على قصار السور. الأب حريص على النصح المؤيد بحجة قرآنية مساعدة، والضمير الدينى يمنعه من التورط فى الاستشهاد بما لا يحفظه، حتى يتجنب الوقوع فى الوزر الذى لا يغتفر.

المصلحة أولا

يقع كمال فى حيرة بين نصين قرآنيين: الأول ينهى عن التورط فيما يهلك، والثانى يأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء، وها هو فهمى يصطدم بحجة أبيه، فينهض ليقارعه الحجة بالحجة، ويذكره بأن الله يحض على الجهاد أيضا.

لا يعرف كمال إلا الحيرة، أما الأب فيملك السلطة التى تسعفه لإلغاء فكرة المناقشة، وعدم الدخول فى الحيرة والجدل.

لم يكن أحمد عبد الجواد وحده من يتشبث بالآية ليدافع عن فهمى وسلامته، فالشيخ متولى عبد الصمد يلجأ هو الآخر إلى الآية نفسها، ويطلب من أحمد أن ينصح بها ابنه: «قل لفهمى: إن الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة». «٤٥١»

أحمد ومتولى متحصنان بالآية الناهية عن إلقاء النفس إلى التهلكة، وفهمى يتشبث بآيات أخرى تحض على الجهاد، ومفتاح إجابة اللغز

يكمن فى نسبية المعانى: ما التهلكة؟ وما الجهاد؟، ونجد المفتاح أيضا فى «المصلحة» التى تبحث عن المعنى المحقق للهدف.

لقد أثبتت الحوادث للأم الحزين أن التمسك بحياة أبنائها أهم من الوطن والثورة، وها هو الأب يسعى، بعد سنوات كثيرة، إلى إقناع كمال، فى «قصر الشوق»، بالابتعاد عن خطر آخر داهم، وهو «علوم الكفار»، ممثلة فى داروين ونظرية التطور. ولكى يكتسب إقناعه قوة، فإنه يعود إلى التاريخ القديم والقريب، ليؤكد وجهة نظره: «وقد نصحت قديما المرحوم بألا يلقى بنفسه إلى التهلكة». «٣٧٤»

التهلكة فى المرض والعدوى، والتهلكة فى السياسة والمظاهرات، والتهلكة فى الأفكار والنظريات. البديل للتهلكة يتمثل فى حياة باردة معتمة، والذين ينصحون بهذا النمط من الحياة لا يفكرون عادة فى معنى الحياة، التى تخلو من مواجهة أخطار الأمراض والسياسة والفكر!.

آية الكرسى

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(البقرة -٢٥٥)

الآية السابقة هى آية الكرسى، وقد جمعت أصول وصفات الحضرة الإلهية، فهو واحد حى قيوم لا يلحقه فتور ولا ندم، له ما خفى من العالم وما بطن، مطلق التصرف لا يرد حكمه شفيع، عالم بمضمرات الأمور ولا يعلم أحد عنه شيئا إلا بتوفيقه، وسع علم كل شىء فى السموات والأرض ولا يشق عليه حفظهما وهو العلى العظيم.

حصن وملاذ

لآية الكرسى مكانة متميزة فى قلوب المسلمين، وبخاصة عند العوام فى الأوساط الشعبية. إنها بمثابة الحصن والملاذ، والأداة الوحيدة المتاحة والمضمونة لمواجهة المخاوف والأخطار. ينشد المسلمون البسطاء فى الآية أمانا مفقودا فى الواقع الكئيب المتجهم، الذى لا يعطى بارقة أمل فى الخلاص.

ولعل سنية المهدى، فى «الباقى من الزمن ساعة»، هى الأكثر تجسيدا لما تمثله آية الكرسى من أهمية فى الموروث الشعبى، فإذ تستشعر القلق على حفيدها رشاد، الضابط فى الجبهة أثناء حرب الاستنزاف، تلجأ إلى ما

تملك من أسلحة لحمايته: «وصدقت نيتها على تلاوة آية الكرسى عقب صلاة العشاء، ليلة بعد أخرى، لتحل به ورفاقه بركتها». «١١٥»

وإذا كانت سنية المهدى تراهن على «بركة» الآية لحماية حفيدها ورفاقه من أخطار العدو الإسرائيلى، فإن الطفل كمال عبد الجواد، فى «بين القصرين»، يلجأ إلى الآية نفسها للتمسك بأمه وقهر مخاوف ما قبل النوم – من عادة الأم قراءة الآية على رأسه قبل أن ينام: «ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى»، ولأن هذه الآية نذير الفراق، فإن الطفل المتعلق بأمه، والمحروم بفرمان أبوى من النوم معها، يتحايل لإطالة فترة اللقاء: «ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه – إذا ختمت آية الكرسى – سورة ثانية ثم ثالثة». «٦٥»

كلاهما يبحث عن الأمان والحماية فيلجأ إلى الآية: الأم تحمى بها ابنها من كوابيس النوم، والطفل يحمى نفسه من شبح الفراق!.

عندما يوجد الخوف، تظهر الآية كتعويذة أكيدة المفعول لمواجهة كافة أنواع الخطر: من مطاردات الإنجليز بالرصاص لمظاهرات الثوار سنة ١٩١٩، إلى غارات المحور الجوية المدمرة فى الحرب العالمية الثانية.

فى مواجهة الرصاص الإنجليزى، الحاصد لأرواح المتظاهرين فى «بين القصرين»، يلجأ الخائفون من الأطفال والنساء إلى دكان حمدان، بائع البسبوسة، أما حمدان نفسه فيأمرهم بالصمت: «ويتلو آية الكرسى». «٣٤٨»

ومحمد ابن الشيخ السناوى، فى قصة «صباح الورد»، ذو أحلام دموية مدمرة، لكنه يعرف الخوف فى ظل غارات الحرب العالمية، وينشغل – فى

المخبأ — عن أصحابه وتعليقاتهم، بتلاوة آية الكرسى: «مستفيدا ببركتها كما علمه أبوه فى الزمان الأول». «٧٠»

عادة وطقس

المواجهة المباشرة الصريحة للخطر، ليست هى الدافع الوحيد للاستعانة بآية الكرسى، فالاستماع إلى الحكايات والذكريات المرعبة يستدعى ذلك، كما يفعل الشيخ متولى عبد الصمد، فى «بين القصرين»، وهو يتهيأ ليسمع من أحمد عبد الجواد قصته مع الجنود الإنجليز، الذين اعتقلوه وسخروه فى عمل إجبارى شاق: «أفزعت يا بنى؟ كيف كان فزعك..».«٤٤٥»

وإذ يتهيأ عباس الحلو، فى «زقاق المدق»، للسفر من أجل العمل فى معسكرات الإنجليز، يودعه أهل الزقاق كل بطريقته: «وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسى». «١٠٧»

أليس أن الشاب العاشق المسالم فى طريقه إلى حيث يجتمع الطموح مع الخطر؟!

ولأن الحياة فى عمومها لا تخلو من المخاوف والأخطار، ولأن الحياة نفسها مخزن كبير للهموم والهواجس، فإن تلاوة آية الكرسى تتحول إلى ما يشبه «العادة» و «الطقس»، بمعزل عن وجود أسباب مباشرة ملموسة.

فى قصة «كلمة فى السر»، مجموعة «بيت سىء السمعة»، تمارس فوزية، الزوجة التقليدية الزاهدة، طقوسا معتادة فى جلستها اليومية: «وفيما

بين أويقات الاستماع إلى الراديو تتلو آية الكرسى بصوت خافت وبعض السور القصار التى تقيم بها صلواتها الخمس». «٨٠»

والأمر نفسه نجده عند الموظف المهزوم المأزوم، المسكون بهوس مقابلته القديمة للمدير العام فى قصة «المقابلة السامية»، مجموعة «الجريمة»: «وكنت راجعا إلى الأرشيف حاملا البريد وأنا أتلو آية الكرسى عندما اعترضنى موظف». «١٧٧»

الزوجة التقليدية، والموظف البائس، لا يواجهان خطرا محددا، لكنهما يمارسان عادة راسخة مستقرة، للتكيف مع عموم الحياة بمآسيها وهمومها.

وينفرد عثمان بيومى فى «حضرة المحترم»، بقراءة سرية داخلية لآية الكرسى وهو يغادر مكتب المدير العام، فى اللقاء الأول الذى يجمعهما بعد تعيينه: «وهو يغادر المكان قرأ فى سره آية الكرسى». «٦»

المدير العام هو «إله» عثمان، و «كرسى» المدير العام هو منتهى طموحه، والغرفة التى يغادرها هى «قدس الأقداس». أهى مصادفة أن يقرأ، فى سره، آية الكرسى؟!

سورة الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

عديدة هى الوظائف التى تقوم بها سورة الإخلاص، الصمدية، فى المعتقد الشعبى. قد لا يكون صحيح الدين متوافقا مع هذه الممارسة، لكن عوام المسلمين من أصحاب الثقافة البسيطة والوعى المحدود، يملكون رؤيتهم الخاصة المتوارثة، التى تجعل للسورة مكانة خاصة، تسعفهم فى عديد من المواقف، وتنجدهم فى مواجهة كثير من الأخطار.

فتوات ومعجزات

فى قصة «كلمة غير مفهومة»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، يرى الفتوة الطاغية حندس حلما يدفعه إلى البحث عن ابن ضحيته حسونة، وينشغل الجميع بالتفكير والبحث: «وذات مساء جاء القهوة الشيخ درديرى، وهو مقرئ ضرير، يتعيش من التلاوة فى المقاهى والغرز وتروج سوقه فى المواسم. صافح المعلم ثم تلا الصمدية وقال: يا معلم، إن كنت تريد ابن حسونة فأنا أعرفه!». «١١»

ما يصرح به الشيخ الضرير لا يستدعى الخوف، لكن الفتوة حندس مرهوب الجانب، ولذلك تبدو الصمدية هنا مقدمة ضرورية سابقة لأى كلام. أهو التحصن بها من البطش الذى لا يخضع لقوانين معروفة؟، أم الاستعانة بها على الإتقان والإجادة؟، أم أنها العادة وحدها ما أملت على الشيخ أن يتلوها قبل الشروع فى الحديث؟!.

وتبدو السورة حصنا منيعا لمواجهة الخطر المجهول الذى يستشعره الأب على ابنه فى الحكاية الأولى من «حكايات حارتنا»، فإذ يؤكد الطفل الراوى أنه رأى شيخا تنطبق عليه أوصاف الشيخ الأكبر، ويحلف على صدقه بكل مقدس، يصمت أبوه مليا ثم يقول:

«- لا تخبر بذلك أحدا.

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية». «٥»

ما يهدد الطفل هو المعجزة وتداعياتها الخطيرة، التى قد تسبب الحسد وتجلب الأذى، ولا مواجهة لهاجس الخطر هذا إلا بقراءة الصمدية والكتمان.

وثمة خطر مماثل غير محدد الملامح يحسه الجندى فى قصة «ثلاثة أيام فى اليمن»، مجموعة «تحت المظلة»، ويواجهه بطريقة مشابهة: «تلوت الفاتحة والصمدية». «٨١»

الثعابين والموت

تمثل الثعابين خطورة تستدعى الاستعانة بالصمدية، وفى «حضرة المحترم» يقدم سعفان أفندى بسيونى مجموعة من النصائح للموظف الجديد عثمان بيومى، ومن هذه النصائح: «واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابا من دواليب شنن، فقبل العيد الماضى طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر». «٩»

لا توفر الحكومة الأمان لموظفيها، فليس لديهم إلا الاعتماد على الجهود الذاتية والتسلح بما يعرفون ويملكون؛ الصمدية.

الفتوة مرعب، والمعجزة الخارقة مخيفة، والحرب مهلكة، والثعابين قاتلة؛ والصمدية هى الأداة الشعبية لمواجهة الأهوال جميعا. وليس من هول يواجهه الإنسان، مهما تبلغ قوته، يفوق الموت.

فى «قصر الشوق»، يروى السيد أحمد عبد الجواد لزائريه، بعد تماثله للشفاء من المرض الشديد الذى وقف به على حافة الموت، ما دار فى ذهنه عند بداية المرض: «فى الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بينى وبين نفسى بأنى انتهيت، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية». «٤٤٧»

الخوف من الموت يدفع إلى طلب الرحمة، وفى التشهد والصمدية ما يقى من الخوف ويقرب الرحمات.

ينجو أحمد عبد الجواد من الموت، أما «نصيبى»، فى قصة «قسمتى ونصيبى»، مجموعة «رأيت فيما يرى النائم»، فلم يفلت: «وذات صباح صحا مبكرا وهتف:

- إنى ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية!

وهرولت إليه ست عنباية فأدركت أنه يحتضر فأخذته فى حضنها، وراحت تتلو الصمدية». «١٠٣»

قبل الموت، أو عند توهم الاقتراب من الموت، تظهر الصمدية على لسان المهدد أو أهله المحيطين به، وبعد الموت تظهر أيضا بمعرفة زائرى الموتى.

فى قصة «رحلة»، مجموعة «خمارة القط الأسود»، يعود العجوز إلى ذكريات طفولته البعيدة، ويتذكر حوارا قديما مع أصدقائه عند قبر أم صديقهم رفاعة، وفى الحوار يطل لغز الموت، وتخيم أسراره وتناقش أساليب الصمود والمقاومة. يسأل سائل:

«- ماذا يفعل الأموات فى القبور؟

فأجاب رفاعة بإيمان:

- إنهم يروننا ويسمعوننا، أمى ترانى الآن وتسمعنى. كانت تقول لى ذلك وهى صادقة.

- والظلام؟

- يذهب بتلاوة القرآن وتوزيع الرحمة على المساكين.

وتلا الصمدية». «٢٠٠»

الظلام والخوف والصمدية: الموت المجهول، والمصير الغامض، والصمدية.

العفاريت والجن

الظلام والخوف والمجهول الغامض، العالم غير المنظور بما يثيره من رعب ويبثه من رهبة؛ الجن والعفاريت. الوظيفة الأكثر انتشارا وذيوعا للصمدية، تتمثل فى مواجهتها الناجعة للجن والعفاريت.

فى مطلع الحياة الزوجية لأمينة، وهو ما تستدعيه فى الصفحات الأولى من «بين القصرين»، عرفت الخوف فى وحدتها المطلقة، من العفاريت

والجن ساكنى البيت الواسع. إنها تعرف عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس: «وكم دب إلى أذنيها همساتهم وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية». «٧»

لا يبدد الأبناء الصغار وحشتها وخوفها، بل إن الوحشة تتفاقم والخوف يتضاعف، ولا مغيث إلا الصمدية، فى مواجهة كل ما يرعبها من سكان البيت: «ولم يكن غريبا وهى منفردة بطفلها تتومه وتلاطفه، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا: «ابعد عنا، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون.. ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة». «٧»

أليس منطقيا ومبررا أن ينتقل هذا المعتقد الراسخ إلى كمال عبد الجواد – الطفل، وهو عظيم الالتصاق بأمه؟!. يتمثل قوام الاعتقاد فى شقين: الأول هو وجود الجن والعفاريت والأرواح، والثانى هو فاعلية الصمدية فى التأمين والحماية. وكما تفعل الأم، يكرر الطفل أثناء مروره فى قبو درب قرمز المظلم، الذى تتخذه العفاريت مستقرا لها: «وعندما دخل فى جوفه راح يقرأ: «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رن فى الظلمة تحت السقف المنحنى، وسبقته عيناه إلى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت». «٥٠»

يؤثر كمال أن يواجه الخوف من الكائنات غير المرئية عن مواجهة أبيه، فالكائنات المخيفة المجهولة تحارب بآيات الله، والأب المخيف لا سبيل لمواجهته واتقاء أذاه.

هل تفلح الآية مع الإنجليز؟!. إلى دكان عم حمدان، بائع البسبوسة، يلجأ كمال خائفا من بطش الجنود الإنجليز، ويتلو فى سره – إذ خانته قدرته على الكلام – «قل هو الله أحد»: «لعلها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت فى الظلام». «٣٤٨»

لعلها!.

ولعل الصمدية أيضا تفلح فى جلب النوم الهادئ لكمال، فى «قصر الشوق»، بعد أن ينهره أبوه ويوبخه لعودته متأخرا. بها تنصح الأم: «اقرأ الصمدية حتى يأتيك النوم». «٤١٠»

ولم يقرأ كمال بطبيعة الحال، فقد انتقل إلى المرحلة الإلحادية وودع العالم القديم كله.

ثنائية كمال وأمينة مع الجن والعفاريت، فى «بين القصرين»، توشك أن تتكرر فى علاقة جعفر الراوى وأمه سكينة، فى «قلب الليل»، مع الكائنات نفسها.

دين واحد وثقافتان

كثيرة هى مغامرات جعفر مع العفاريت فى طفولته، وإذ يصيبه الفزع بعد إحدى هذه المغامرات، تنتبه أمه إلى خطورة الموقف: «وقالت لى أمى إنه آن لى أن أحفظ الصمدية». «٢٢»

المسألة محسومة عند الأم، والتقصير الوحيد أن طفلها لم يحفظ الصمدية بعد، حتى يتسلح ويقاوم!.

بانتقال جعفر إلى بيت جده، العالم الأزهرى الكبير الذى يعرف الدين الصحيح النقى من الشوائب والخرافات والأساطير، يحدث صدام بين معتقدين ينتميان إلى دين واحد. فى اللقاء الأول بين الجد والحفيد، يدور الحوار التالى:

«- ماذا تحفظ من القرآن؟

- قل هو الله أحد.

- ألم تحفظ الفاتحة؟

- كلا». «٣٠»

هل توجد «حكمة» و «فلسفة» فى حفظ الصمدية قبل الفاتحة؟.

لعل هذا ما يفكر فيه الجد وهو يواصل الحوار:

«- ولم بدأت بقل هو الله أحد؟

- لفائدتها فى إخضاع الجن». «٣٣»

ثقافتان مستمدتان من دين واحد: ثقافة نقية رصينة عاقلة يمثلها الجد العالم، وثقافة مطعمة بالخرافات والأساطير والموروثات الشعبية ينتمى إليها الحفيد. يعلن جعفر ببساطة أن للسورة فائدتها فى إخضاع الجن، ويعلن - بالبساطة نفسها - أنه تعامل معهم كثيراً.

راضية معاوية القليوبى، فى «حديث الصباح والمساء»، من أكثر شخصيات نجيب محفوظ تعبيرا عن الدين الشعبى، ولمعتقداتها هذه يستسلم ابنها

حامد فى غير جدية، وبدافع المرح وحده: «يترك جبينه لأمه تلثمه بحنان، ويسلم رأسه لها لترقيه وتتلو عليه الصمدية وبعض محفوظاتها من الأوراد». «٥٩»

حنان ورقى وأوراد، قبل وبعد الصمدية!.

الإدانة واجبة، وميسورة، للنساء الشعبيات البسيطات غير العالمات، مثل أمينة وأم جعفر وراضية، لكن الصورة لا تكتمل إلا بالتعرف على النمط الأرستقراطى العكسى، الذى تمثله عايدة شداد. لا تعرف عن دينها شيئا، ومعلوماتها عن المسيحية – بحكم تعليمها – أضعاف معلوماتها عن الإسلام. وهى إذ تدعى أنها تحفظ، أو كانت تحفظ، أكثر من سورة، يسألها كمال العاشق:

«– بديع، بديع جدا، مثل ماذا؟»، لا تملك إجابة، لكنها ترفع صوتها فجأة، شأن من تذكر شيئا أعياه طلابه، وتقول: «مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد..الخ». «٢١٧»

أيهما أولى بالتسامح والغفران والتعاطف: التطرف الشعبى الجاهل أم التطرف الأرستقراطى المستغرب؟!. وأيهما أقرب إلى الدين: إضفاء المزيد من هالات التقديس والتبجيل على القرآن الكريم، وإن تجاوز الحد، أم الإهمال والنفور والتعالى، وليد الانتماء إلى ثقافة أخرى؟!.

أحدث إصدارات مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

منافذ توزيع إصدارات مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع

■ القاهرة

- ١٦٥ شارع محمد فريد — ت : ٢٣٩٠٤٤٩٩
- مكتبة الأوبرا – ميدان الأوبرا – العتبة — ت : ٢٥٩٠٦٢٧٢
- مكتبة الأهرام - أركاديا مول — ت : ٢٥٧٧٥٤٤٨

■ الفنادق السياحية

- شيراتون القاهرة ٨٨ — ت : ٢٧٧٠٤٥٧٤ – ٣٣٣٦٩٨٠٠
- جراند حياة القاهرة – داخلى ٦٣١٥ — ت : ٢٣٦٢١٧١٧ – ٢٣٦٤٨٢٣٠
- هيلتون رمسيس (السوق التجارى) — ت : ٢٧٧٠٤٦٤٦ – ٢٥٧٧٧٤٤٤
- سميراميس انتركونتيننتال — ت : ٢٧٩٢٢٥٣٧
- إنتركونتيننتال هليوبوليس مدينة نصر — ت : ٢٤٨٠٠١٠٠

■ بنها

- شارع الشهيد فريد ندى — ت : ٠١٣/٣٢٢٣٨٤٨

■ الإسكندرية

- طريق الزعيم جمال عبد الناصر — ت : ٠٣/٤٨٤٨٥٦٣

■ الزقازيق

- شارع ٢٣ يوليو – عمارة الأوقاف — ت : ٠٥٥/٢٣٠٦٦٥٧

■ أسيوط

- مبنى جامعة أسيوط — ت : ٠٨٨/٢٣٣١٠٦٥

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

وصف مصر فى أدب نجيب محفوظ

تمثل أعمال نجيب محفوظ الروائية والقصصية أهم محاولة فنية لوصف مصر فى القرن العشرين، فما من صغيرة أو كبيرة فى نسيج الحياة المصرية، إلا ونجد فى إبداعه الثرى وصفا وتحليلا عميقا له. ولذلك قد يكون هذا هو أول وصف متكامل لمصر بعد ما قام به علماء الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر وأسموه "وصف مصر".

وتضم هذه السلسلة مجموعة من الدراسات تبحث عن الملامح المختلفة فى الحياة المصرية، سياسيا وثقافيا واجتماعيا ودينيا، منطلقة من إعادة إنتاج كتابات نجيب محفوظ وسعيا إلى وصف مصر فى القرن العشرين.

مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع
توزيع الأهرام
مطابع الأهرام التجارية - قليوب

